الرسائل الصغرى

لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن
عبّاد الرّندي النّفزي
رحمه الله
٧٣٢ - ٧٩٢ هـ

المشرق

السنة الواحدة والخمسون
كانون الثاني – شباط ١٩٥٧

الرسائل الصغرى للشيخ ابن عبّاد الرندي

نشرها
الاب بولس ع. نويا اليسوعي

من مخلّفات الشيخ ابن عبّاد الرندي (١٣٣٣–١٣٩٠) مجموعتا رسائل سمي الواحدة منها الرسائل الكبرى والاخرى الرسائل الصغرى. وقد ضمّن الاولى ثماني وثلاثين رسالة طُبعت طبعة حجرية في فاس سنة ١٣٢٠ هـ. وقد اتفقنا والناشر الكريم ان نخصّ مجلة المشرق وقراءها بالمجموعة الثانية لما فيها من فوائد لاهوتيّة وصوفيّة وهي لم تنشر بعد. واننا على يقين ان هذه الرسائل التي لا يستطيع اهمالها مؤرّخ الصوفية ستؤدي للباحث المدقّق الخدمات الجلّى وتنبهه الى ما وراء المفردات الصوفية من المعاني الجمّة الثريّة.

كان الناشر قد خصّ المشرق بالرسالة التاسعة من المجموعة التي نحن بصددها (طالع المشرق ٤٩ (١٩٥٥) اذار – نيسان، ص ١٢٩–١٤٨) ولذا فاننا لا نعيد طبعها هنا.

ا. ع. خ.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى[1] الله على سيدنا ومولانا[2] محمد وعلى[3] آله وصحبه وسلم.

[الرسالة الأولى]

كتاب فيه جواب سؤال اورده بعض الناس على مسئلة في كتاب قوت القلوب في باب الخوف منه . وفيه زيادة مفيدة يحتاج اليها المريد في مخالطة بعض الناس[4].

اسلم عليكم كثيرًا وأسأل ربي عز وجل لي ولكم من تمام التوفيق والهداية الى سواء الطريق وما[5] يتكفل بنجاح الآمال[6] وصلاح الاعمال[7].

اما بعد فقد وصلني منكم كتاب وانتم تطلبون فيه بيان المسئلة الواقعة في كتاب ابي طالب البيان الشافي . والكلام فيها على حسب ما طلبتموه عظيم الخطر كثير الضرر لتضمنه كشف اسرار مصونة ونشر علوم مكنونة . ثم هو متعذر علي جدًا لاستدعايه كشف بواطن الصفات ومعاني اسامي الذات ولا يدرك تحقيقها الا بانوار اليقين ولا يهتدى لطريقها الا ببضاعة الصديقين ومن الذي يقدر منا على سلوك مسلكهم او الانتظام في سلكهم وقد حجبتنا الشهوات واسترقتنا العادات ووقفنا مع الرسوم والطلول ومنعنا عن الوصول بتضييع الاصول واغتالتنا الاعداء والاهواء بفنون التزيين والاغواء فعميت[8] البصاير واظلمت السراير . فان رمنا تحقيق ما طلبتموه من البيان على طريق الكشف والعيان تعدينا طورنا وتجاهلنا قدرنا ووقعنا في سخف الدعاوي التي تشين العاقل وتبين جهل الجاهل ولم تحظوا من ذلك[9] بطايل . وان احلنا في ذلك على اهل الظاهر وجدناهم لا يشفون غليلًا ولا يهتدون سبيلًا لوقوفهم مع عقولهم وجمودهم على آرايهم . ثم كان في ذلك من سوء الادب والنكوص على العقب ما يقضي بالحرمان ويفضي الى نقصان الايمان . فلم يبق لنا في هذه المسئلة نصيب[10] الا التسليم لاهله واستعمال حسن الظن في محله والتماس الفتح من الفتاح العليم والهداية الى صراطهم المستقيم مع اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه وهو طريق مخصوص بالسلامة من الآفات خاص لامثالنا من ارتكاب[11] الجهالات

١) ق : صلى ‖ ٢) ق ر : − ومولانا ‖ ٣) س : − وعلى ‖ ٤) ف : + فهذه الرسائل الصغرى ‖ ٥) ا : وما ‖ ٦) ا : الأعمال ‖ ٧) ر : الأحوال ‖ ٨) ا : وعميت ‖ ٩) ا : − من ذلك ‖ ١٠) ا : − نصيب ‖ ١١) س : ركوب ؛ خ : ارتكاب ‖

متضمن حسن الأدب مع الاوليا. والسادات مؤد الى مرتبة شريفة من مراتب الولايات . وقد قال الجنيد : التصديق بعلمنا هذا ولاية .

لاكن لتعين اجابتكم عليّ اذكر مما فهمته من هذه المسئلة نبذة لايقة بالحال رافعة للاشكال مانعة من اعتقاد المحال ولا اتعرض الى ما[١] وراء ذلك. فان اصبت الحقيقة فمن قبل المدد الالهي وان اخطأتها فمن اجل العجز البشري وربنا عز وجل المحمود في الحالين .

فنقول : هذه المسئلة عظيمة الموقع في علم التوحيد جليلة الخطر عند الموقنين من اهل التفريد جارية على اصول اهل الحق حاوية لمعاني الصدق صادرة عن ذى يقين وايمان وشهود وعيان لم يدع في بيانها سبيلًا الا سلكه ولا حجابًا الا هتكه وقد تبعه الغزالي على مذهبه وافرغها في قالبه فذكرا المكر ووصفاه بعظم القدر وقد نسبه الحق تعالى الى نفسه في مواضع من كتابه كما نسب الابتلاء والفتون والكيد اليه ومعاني هذا الكلم من معاني صفتي المشيئة والعلم ولها[٢] من التقديس والتنزيه والتعالي عن التمثيل والتشبيه ما لها .

ولنقدم ها هنا مقدمة وهي ان الباري تعالى خلق الانسان وجعله مشتملًا على صفات الكمال والنقصان[٣] وكلها ناقصة بالاضافة اليه سبحانه[٤] ثم هيأه لمعرفته ومعرفة صفاته[٥] وامداده بما ركب فيه من العقل الذي به يدرك العلوم النظرية وارشده الى النظر في الآيات والاعتبار بالمصنوعات فلما نظر فيها ظهر له من العجايب والغرايب ما اضطره الى الاعتراف بصانع مبدع وخالق مخترع متصف بحياة وعلم وقدرة وارادة حسبما شاهد نفسه اذا فعل فعلًا محكمًا متقنًا . ثم نظر ايضًا الى نفسه فرأى فيها صفات كمالية من سمع وبصر وكلام فاضطره[٦] شهود الالوهية[٧] الى ان وصف خالقه ومبدعه بها . ثم لما رأىٰ تفاوتًا عظيمًا بين الحادث والقديم والمخلوق والخالق اضطره ذلك الى اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه فادرك حينئذ من تنزيه باريه تعالى وصفاته ما يليق بادراكه فحصل من ذلك على مرتبة عليا وغاية قصوى فيما يعتقد ويرى فهذه كيفية النظر والاعتبار والاستدلال على المؤثر بالاثر[٨]

---

١) إ خ ف ر: لما ‖ ٢) ر س: ولها ‖ ٣) ف ق ر س: كمال ونقصان ‖ ٤) ف ق ر س : – سبحانه ‖ ٥) ر : صفته ‖ ٦) إ : اضطره ‖ ٧) ف ق ر س : الاولوية ‖ ٨) ف ر س : الآثار ‖

وهو منهج سابل لكل عامي عاقل كاف في الوصول الى اصل المعرفة الموجبة لحصول النجاة ونيل الدرجات الا انه معرض لقبول التشكيك في الاعتقاد خال عن انشراح الصدر وثلج الفؤاد .

ثم اختص الحق تعالى بعض عباده بان ألاح لهم من نوره ما لم يحتاجوا معه الى تأمل دليل وسلكوا به من معرفته اوضح سبيل فشاهدوا من عجائب الصفات ومعاني اسامي[1] الذات ما لم يشاهده[2] الاولون وادركوا من جمال الحضرة الربوبية والانوار القدسية ما عجز عن ادراكه المستدلون وقالوا لهم : كيف تستدلون عليه بما هو مفتقر في وجوده اليه متى غاب حتى يحتاج الى دليل عليه ومتى فقد حتى تكون الاثار هي التي توصل اليه ايكون لغيره من الظهور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ام كيف يعرفنا بشيء من سبق وجوده كل شيء ام كيف يتوسل اليه بتوسل بعيد وهو اقرب من حبل الوريد « او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد »[3] . ومع ذلك فلم يحصلوا من معرفته الا على الاسماء ولم يصلوا بما نالوا من توحيده وتنزيهه الى غاية الحمد والثنا. فشاهدوا وجود ما سواه عدما وثبوت غيره نفيا وشهوده زورا وادراكه غرورا وذكره نسيانا وزيادته نقصانا ورأوا بيقين العيان وواضح البرهان صدق قول من قال : كان الله ولا شيء معه وهو الان على ما عليه كان .

فلما وصلوا الى هـذا المقام حصلوا في قبضة الملك العلام فحررهم من رق الآثار وافناهم عن الاغيار وطهر منهم الاسرار وتجلى لهم الحق سبحانه بمحاسن الصفات والاسماء واطلعهم من علمه على ما شا. فقاموا على قدم العبودية بين يدى مولاهم ووقفوا موقف المراقبة لمن يعلم سرهم ونجواهم وصفوا في مصاف الخدمة مع الصافين المسبحين وفازوا بافضل منازل العابدين[4] وانشدوا بلسان حالهم ومقالهم :

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ : (الابيات) . فهنيئاً لهم ماذا خصوا به من منازل الاحباب وماذا سبق لهم في ام الكتاب من حسن المآب .

١) ر : — اسامي || ٢) ر : يشاهد || ٣) قرآن : ٤١:٥٣ || ٤) ف ر س : العارفين ||

فبان بهذا تباين الطريقتين وفرقان ما بين المذهبين اذ عمدة الاول نظر العقل الى وجه الدليل ولا يدرك الا بنوع من القياس والتمثيل وهو معلول عند ذوي التحصيل : ومعتمد الثاني نور اليقين ولا يتراءى به الا الحق المبين وهو اعز ما نزل في قلوب خواص المومنين من السماء. وبه تدرك حقيقة[1] الصفات والاسماء .

فاذا فهمت هذه المقدمة فاعلم ان اعتراض من اعترض على الشيخ ابي طالب من الوجه الذي ذكرتموه عنه ساقط على مذهب الخاصة لان هذه المسئلة مبنية عليه وراجعة اليه وهو على غير قياس العقول وعلى غير ترتيب المعقول . نعم وهو ايضاً ساقط على مذهب اكثر[2] العامة لان[3] كلامه في هذه المسئلة غير خارج عن طور العقل .

اما قوله : « ولا نهاية لمكر الله لان مشيئته واحكامه لا غاية لها » فانه باب من تنزيه علم الحق تعالى وكلامه ومشيئته واحكامه عن الادراك والاحاطة ولاجل ذلك ما خاف النبي[4] وجبريل عليهما السلام من مكر ربهما عز وجل مع ظهور التأمين فهو خوف لازم لا يتصور الانفكاك عنه لانه من مقتضيات الايمان والعلم بحقائق الصفات ومعاني اسامي الذات . فمن كان حظه منها اوفر كان خوفه اكثر وقد قال بعض العارفين[5] : من عرف الله تعالى لم يسكن اليه لانه[6] ضرب من الامن ولا يأمن مكر[7] الله[8] الا القوم الخاسرون وقال غيره[9] : خف ربك خوفاً تامن به من كل شيء. واحذر قلبك ان يامن من الله تعالى في شيء . فلا معنى للخوف من شيء. ولا الامن من الله تعالى في شيء.[9ب] .

فلا جرم لم يكن ليزيل خوفهما ظاهر قوله : « قد امنتكما » لان ظاهر القول لا يقضي على باطن الوصف الموجب للخوف اذ قد يكون اطلاقه على

---

١) ف س ر : حقايق || ٢) ف ق ر س : — اكثر || ٣) ف ق ر س + اكثر || ٤) س : + صلعم || ٥) ف ق ر س : العلماء || ٦) س : لان في السكون اليه ضربا من الامن : ط : الاصل كذا . وما ﺑﻌ « لانه ضرب » من سبق القلم || ٧) ف مكره || ٨) ف : — الله || ٩) إ ط : هو سيدي ابو الحسن الشاذلي رضي الله عنه || ٩ ب) إ : — فلا معنى . . . شيء ||

وصف مخصوص قد انفرد الحق تعالى بعلمه حسبا ذكره الشيخ ابو طالب. وهذا باب من تنزيه الكلام لا يسع انكاره اذ لا تمتنع[١] في العقل ان يرد عن الحق تعالى كلام لا تحيط به الافهام. وتكون فايدة ذلك في مسئلتنا اختبارهما وابتلاؤهما لينظر حافظ في مراعاة حقوق الصفات في تقلب الحالات على ما جرت به سنته مع خواصه[٢] كقصة ابراهيم عليه السلام. وكل ذلك غير مستحيل في العقل فكيف يتوهم فيه الخلف. ثم فيه من اظهار الافتقار الى ربهما[٣] عز وجل ما لا خفاء به وهو مقام رفيع اقام الحق فيه نبيّه عليه السلام في اغلب احواله وهو اتم من اظهار الغنى به لان الفقر اليق بالعبودية من الغنى لانه من اوصاف الربوبية على حسب ما ذكره ايمة الصوفية. فلا يبعد على هذا ان يعلم الحبيبان عليهما السلام بما كشف[٤] لهما في تلك الحالة من صفة الاستغناء ومشاهدة الجلال والكبرياء ان مراد الحق تعالى منهما في ذلك الوقت اظهار الافتقار واستشعار المنة والانكسار فلذلك ظهر عليهما من الحال والمقال ما ظهر.

وقوله: «ولان الحق تعالى لا يدخل تحت الاحكام ولا يلزمه ما حكم[٥] به على الانام» باب اخر من تنزيه الذات عن لوازم المحدثات لان له الفاعلية المطلقة والفوقية التامة فلا يدخل تحت حكم لانه الحاكم فكيف يكون محكوماً لحكم[٦] او داخلًا تحت رسم ولا يختبر صدقه بقول ولا فعل لانه المصدق لكل ذي صدق والمحقق لكل ذي حق فكلامه كله صدق وحق حقيقة ولفظا لا لفظا فقط وان خفي علينا معناه وغاب عنا فحواه وهذا واجب في حقه تعالى. وبهذا يدفع[٧] الاعتراض على قول الشيخ ابي طالب ولا يجوز ان يوصف بضد الصدق انه لم يمنع الا وصفه باللفظ بمجرده.

وقوله: «ان بدل الكلام هو تبديل منه» الى آخره كلام صحيح بديع في معنى التوحيد خارج عن طور العقل فلا يلزمه عليه تجويز نسخ الاخبار كما توهمه بعضهم.

واما الحديث المذكور فلا علم لي بصحته ولا من خرجه من اهل الحديث وانما اورده على مذهبه من ان الحديث المشهور اذا لم ينافه كتاب ولا سنة

١) ف ق ز س: يمتنع ‖ ٢) ق: خاصته ‖ ٣) س: ربه ‖ ٤) ف ز س: كوشف ‖ ٥) س: يحكم؛ خ: حكم ‖ ٦) س: بحكم ‖ ٧) ز س: يندفع ‖

تقوم به الحجة ويجب القول به والعمل وان كان في سنده مقال وكذلك المقطوع والمرسل . وقد ذكر في ذلك عن احمد بن حنبل وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهما غير شيء في كتاب العلم .

على انه لا حاجة بنا الى تعرف[1] ذلك لوضوح المعنى فيه وانتفاء الاشكال عنه حسبما قررناه والعجب ممن ينكر هـذا الحديث لعدم فهمه له واعتقاده[2] ثبوت الاستحالة فيه ومعناه كالمقطوع به فان تامين الحق تعالى لهما لا استرابة فيه ويكفي في ذلك سمو رتبتهما وعلو درجتهما وارتفاع منزلتهما الى غير غاية ونهاية .

وخوفهما من مكره معلوم ايضاً بقضية العقل فلم يبق الا صورة الكلام من السؤال والجواب والامر في ذلك قريب . فكل ما نجاب به عن هـذا الالزام فهو جوابنا عن[3] الحديث وقد ادخل الغزالي في هذه المسئلة بعد ذكر هذا الحديث والكلام عليـه حديث دعاء النبي عليه السلام[4] ربه يوم بدر وقوله « ان تهلك هذه العصابة لا تعبد » مع تقدم الوعد له من ربه عز وجل بنصره وظهوره ومعنى هذا الحديث في الصحيح والكلام عليه كالكلام عـلى الاول الا ان معنى الافتقار فيه اظهر .

واما قصة موسى عليه السلام وخوفه بعد التأمين فهي من جنس ما تقدم من تنزيه علم الحق تعالى وكلامه ومشيئته واحكامه واظهار الافتقار الى ربه وعلو مقامـه وهو معنى قول الشيخ ابي طالب : « فلم يامن موسى » الى قوله « لمعرفة موسى بخفي مكره وباطن وصفه » .

وقوله : « ولعله انه لم يعطه الحكم » معناه انفراد الحق تعـالى باسم الحكم[5] اذ الحكم نوع قهر وهو القاهر فلو لزمه حكم او احتج به عليه كان محكوماً فيكون مقهوراً ويتعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .

ولا يلزم في الخطاب الثاني ما لزم في الاول على حسب ما توهمتموه لاحتمال اشتمال الثاني على سر من اسرار الحق تعالى اوجب طمأنينة موسى عليه السلام

---

١) س خ : استعلام ‖ ٢) ر : واعتقاد ‖ ٣) ف : + هذا ‖ ٤) ر س : سلم ‖ ٥) س : – معناه . . . الحكم ‖

وسكونه وانتفاء خوفه وامنه اكراماً له ولطفاً به وانفاذاً لما شاء من احكامه .

وقد نبه عليه الشيخ ابو طالب بقوله : « فاطمأن الى القايل ولم يسكن الى الاظهار الاول » الا ترى كيف اورده الحق تعالى على ابلغ وجوه الايراد في قصد معنى التأمين من كونه جملة خبرية مصدرة بحرف التأكيد مع تأكيد الاسم ودخول الالف واللام على الخبر على صيغة افعل[1] بعد وقوع السبب والقيام بحق الخطاب الاول . فهذا فرقان ما بينهما من حيث[2] الظاهر .

واما قصة عيسى عليه السلام ففيها من تنزيه العلم والكلام وحسن الادب في ذلك المقام ما تكل عن وصفه الالسنة والاقلام وتقرير ذلك موكول الى اربابه[3] نفع الله بهم .

فلنقتصر على هذا القدر من الكلام في هذه المسئلة ولنستغفر اله عز وجل مما وقع منه فانه لا يفهم حقيقة ذلك – الا من حظي بذوق من مقام الخاصة الذي ذكرناه قبل هذا وانا منه في غاية الافلاس .

وما ذكرتموه عن الخطيب ابي بكر من اخباره بمخالفة[4] ابي طالب لمذاهب الناس في الصفات بعد ثنايه عليه فشيء مجمل[5] لا بيان فيه لكيفية المخالفة . فان اراد به مخالفة تؤدي الى بدعة على ما فهمه المعترض كخلاف من خالف في ثبوت الصفات او قدمها او عموم[6] تعلقها او[7] تنزيهها فحاشاه من ذلك ولا شيء من كلام ابي طالب يدل عليه وكيف يصح ذلك مع[8] ثنايه عليه اذ يكون اذ ذاك تقبيح حاله وذمه اولى به من مدحه والثناء عليه. وان اراد به مخالفة لا تؤدي الى بدعة كالمخالفة المالوفة بين[9] اهل الظاهر والباطن فذلك جايز ولا حجة فيه للمعترض .

فالمراد منكم ان تقفوا على هذا الموضع من كتاب[10] الخطيب وتنقلوه بلفظه مستوفى وتبعثوا به الي لانظر فيه .

وقد سرنا اخذكم في هذه العلوم وبحثكم فيها على حال غربة وعدم قابلية

---

١) س خ : مصوغاً بصيغة افعل ‖ ٢) ق : حديث ‖ ٣) ق : اوصافه ‖ ٤) ف ق ر س : + مذهب ‖ ٥) ا : مجهول ‖ ٦) س : عدم ؛ خ : عموم ‖ ٧) ر : و ‖ ٨) ر : بعد ‖ ٩) ا : من ‖ ١٠) ا : كلام ‖

بالنسبة الى الزمان والمكان والاخوان فاثبتوا على ذلك وداوموا عليه تحمدوا عاقبته .

واوصيكم بوصية[١] لا يعرف قدرها الا من عقل وجرب ولا يستهين بها الا من غفل فحجب . وهي ان تأخذوا في هذا العلم مع من هو متصف باحدى ثلاث صفات : كبر او بدعة او تقليد . اما الكبر فانه وبال يمنع من فهم الآيات والعبر. واما البدعة فهي ضلال يوقع في البليات الكبر. واما التقليد فانه عقال يعقل عن درك الظفر وبلوغ الوطر. ومن[٢] اتصف بواحدة منها فقد ادركه سوء القضاء وبلي بجهد البلاء فكيف بمن اجتمعت فيه . ثم لا يومن[٣] من سريانها فيكم وانسداد[٤] الفهم في هذا العلم بسببها عليكم فيقع الفساد من وجه الصلاح وتنغلق عليكم ابواب الرشاد والفلاح . وما[٥] يزخرفه احد هؤلاء من كلام[٦] او ينتحله من حال او مقام فحاصله سفسطة وزور وتلبيس وغرور وفتنة للقايل والقابل وسبب الى استمالة كل غمر جاهل وكل ذلك باطل في باطل وهذا من ادل دليل على افضلية هذا العلم اذ لا يفتح بابه الا لعبد تقي نقي ولا يرفع حجابه الا لقلب منيب زكي بخلاف غيره من العلوم . ولا تجعلوا لاحد من اهل علم الظاهر حجة على احد من اهل هذا العلم فان فيه عكس الحقيقة وسوء الادب وفساد الطريقة والافضاء الى العطب لكونهم شاهدوا ما غاب عن غيرهم وتحققوا بحقائق عجز عنها سواهم فهم كما قال القايل :

لَيْلِيَ مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُحَى ... وإنَّمَا السُّدْفَةُ فِي الجوِّ
والنَّاسُ فِي الظُلْمَةِ مِنْ لَيْلِهِم ... وَنَحنُ مِنْ وَجْهِكَ فِي الضَوْ

وقال الشبلي : ما ظنك بعلم علم العلماء فيه تهمة . واذا وقعت لكم مسئلة لا تقبلها عقولكم فقابلوها بالتسليم وترك الاعتراض فما قريب ينكشف لكم من امرها ما تطمئن به قلوبكم وتنشرح له صدوركم. وعليكم بحسن النية وصدق الارادة في هذا العلم فانه علم شريف به يهتدي العبد الى معرفة ربه عز وجل ومشاهدة آلايه وبه يتوصل الى نيل سعادة لقايه مع خاصته

---

١) س : وصيته ‖ ٢) ر : فمن ‖ ٣) س خ : لا آمن ‖ ٤) إ ق ف ر : افساد ‖ ٥) إ ف ق ر : ما ‖ ٦) س : — من كلام ‖

واحبايه وقد قال الجنيد[1] : لو علمت ان لله تعالى علما تحت اديم السما اشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع اصحابنا واخواننا لسعيت اليه ولقصدته . وملاك ذلك كله صدق اللجا والافتقار ودوام التضرع والانكسار في حضرة الملك الجبار . فبذلك تنشرح الصدور وتنفتح مغاليق الامور فلا حول ولا قوة الا بالله[2] .

فمن قبل هذه الوصية بقبولها وعمل بمضمونها ومحصولها فقد سعد في الدارين وفاز بقوة العين والا فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا يعدل العاقل بالسلامة شيئاً فنسأل[3] ربنا عز وجل ان ينور بصايرنا ويطهر سرايرنا ويلحقنا بحزبه المفلحين ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين بمنه وكرمه .

وصلى الله اولاً وآخراً على سيدنا محمد[4] وآله وسلم[5] تسليما[6] .

[الرسالة الثانية]

كتاب تضمن مداواة علل وذنوب[7] وعيوب اتصف بها رجل من ارباب القلوب

اما بعد فقد وصلني كتابكم وتعرفت منه ما اخبرتم به من احوالكم واعلم يا اخي ان ذلك كله ليس بغريب ولا مستنكر في ذلكم الموضع في مثل هذا الوقت فان الطالب لاصلاح قلبه فيهما لا يكاد يجد مسلكاً يسلكه الى ذلك الا وقد ترصد له عدوه المسلط عليه ليقطعه عليه وقد اعد لذلك جنوداً من شياطينه الانسية فضلاً عن الجنية ونصب شباكاً واشراكاً من فتن الدنيا وغرورها وامانيها وسترها بلطائف الحيل والتزويرات عن ابصار الناظرين اليها فاذا تعثر المريد ببعضها على غير علم ولا بصيرة انتهز اللعين الفرصة وارسل عليه جنوده وبث شياطينه فزخرفوا له انواعاً من الغرور والتمويهات فيعمى بها بصر قلبه ويصده ذلك عن سبيل ربه فيبقيه[8] حايراً ولا يهتدي سبيلاً ولا يجد

---

١) ق : + رحمة الله تعالى || ٢) ف ر : به || ٣) س : فلنسأل || ٤) ف ق : + وعلى || ٥) ف : – وسلم تسليما || ٦) ف ر س : – تسليما || ٧) إ : ذنوب || ٨) ر س : فيبقى ||

دليلًا . فكيف يستقيم صلاح القلب مع هـذا الا بتأييد من الرب عز وجل وعناية سابقة منه .

وقد كنت كتبت لكم قبل هذا كتابا تكلمت فيه على المسايل التي كنتم رسمتموها اذ كنتم ها هنا وذكرت فيها فصولًا نافعة للمريد في سلوكه وآدابا يقوم بها في جميع حالاته بذلت فيها جهدي . وذكرت فيها لباب ما عندي وما لم يشك احد له عقل في صحته ولا يرتاب في كونه شفاء لكل عليل من علته وبعثت به اليكم فلما وصل هذا الكتاب منكم واخبرتم فيه بما اخبرتم ساء الظن في وصوله اليكم اذ لم يقع لي بذلك منكم كتاب ولا اخبرني به مخبر وبتقدير وصوله هل وقع منكم موقع القبول وبتقدير وقوعه كذلك هل بقيتم على[1] ذلك ولم تتغيروا عنه بقول قايل او عدل عاذل[2] . فان كان بعض ذلك فما انا اذكر لكم في جواب كتابكم نبذا متنعة بتوفيق ربنا عز وجل تأدية لحق سؤالكم ورجاء المنفعة لكم ومنكم .

فنقول : جملة ما ذكرتموه يرجع الى ثلاثـة معان : المعنى الاول انكم متصفون بذنوب وعيوب . والثاني عجزكم عن ازالة ما وقع وعن الاحتراز مما[3] لم يقع . والثالث : تحيركم بسبب ذلك وتشوش خاطركم من قبله . وكأنّ هاذين المعنيين راجعان[4] الى المعنى الاول لان العجز عن الازالة وعن الاحتراز عيب والتحيز بسبب ذلك لفقد علم اليقين لا مطلقا عيب فرجع حاصل الامر الى انكم متصفون بعيوب .

ثم ان هذه العيوب التي اخبرتم بها تصريحا او تلويحا ينبغي لكم ان تنظروا فيها بعين البصيرة ولا تأخذوا الامر جزافا فانكم تسرفون في ذلك ويؤول الامر بكم الى جهالات وسوء ادب وتتوهمون ما ليس بعيب عيبا وترون ما هو عين الدواء داء . ومعرفة العبد باحكام احواله من الخيرية والشرية وشرية الخيرين وخيرية الشرين من اعظم المعارف وادقها وهي التي كسدت اسواقها في هذه الازمنة وانما الموجود الان عند من يوسم عند الناس بمعرفتها والوصول الى حقايقها امور وهمية وعلوم رسمية ليست من الحقيقة في شيء . فلا تريد المريد الا

١) إ : — على ‖ ٢) إ : عدل عادل ‖ ٣) ق : عما ‖ ٤) ق : راجعين ‖

تحييرا ولا الناظر فيها الا تشويشا وتكديرا وما ذلك الا لعدم اهل التحقيق الدالين على محجة الطريق فعلى فقد مثل[١] هؤلاء. ينبغي ان يبكي ويتأسف وعلى خلو الزمن عنهم ينبغي ان ينشد ما قاله بعض السلف :

يا حَسْرَتَا[٢] مِنْ فِرَاقِ قَومٍ هُمُ المَصَابِيحُ والحُصُونُ
والمُزْنُ والمُدْنُ وَالرَوَاسِي وَالخَفْضُ[٣] وَالأَمْنُ وَالسُكُونُ
لَمْ تَتَغَيَّرْ لَنَـا اللَيَالِي حَتَّى تَوَفَّتْهُمُ[٤] المَنُونُ
فَكُلُّ جَمْرٍ لنا قُلُوبٌ وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عُيُونُ

وللنظر الى العيوب التي ذكرتموها اعتباران : احدهما من حيث اختراعها وخلقها صفة لكم والثاني من حيث نسبتها اليكم شرعاً . وهذان الاعتباران هما المعنى بقول بعضهم : ارادها منه ولم يردها له . فبالاعتبار الاول لا حمد فيها ولا ذم بحسب من قامت به . والباري سبحانه[٥] وتعالى هو المحمود عليها بكل حال ويجب عليكم الرضى بقضايه والتسليم لحكمته ومشيئته فتستعجلون بذلك راحة انفسكم وتتفرغون[٦] للنظر فيما يجب عليكم .

وبالاعتبار الثاني هي مذمومة ويجب عليكم التوبة منها والحزن والندم عليها فان وفيتم بذلك حزتم اجرًا جزيلًا فيما تكابدونه من ذلك وفزتم برضى مولاكم عنكم اذا[٧] فعلتم ما امركم به . فلا معنى للكرب فيما يعتريكم في ذلك من النصب والتعب اذا حصل لكم ما حصل . وان لم توفوا بذلك بل غلب عليكم طبعكم واستولت عليكم شهوتكم فالبدار البدار الى اللجا الى ربكم بصدق الافتقار ولزوم بابه بالخضوع والانكسار والوقوف بين يديه موقف الاضطرار . وما اقرب هذه الحالة منكم حسبما ذكرتموه في تمثيلكم بغريق الموج واكيل[٨] الدابة والاسير المعذب والمشرف على الهلاك . فاذا قمتم بذلك فابشروا فقد حزتم مرتبة يا لها من مرتبة لا يعرف قدرها الا الاحاد من الاولياء . وصاحب هذه الحالة جدير بان يسعف بطلبته ويجاب الى مقصوده

١) ف ق ر س : امثال ‖ ٢) ف ر س : حسرتي ‖ ٣) ر: والحفظ ‖ ٤) ر : توفهم ‖ ٥) ف ق ر س : – سبحانه و ‖ ٦) ف ق ر س: + بذلك ‖ ٧) س : اذ ‖ ٨) ا : واكليل ‖

وبغيته لصدق الوعد باجابة[١] المضطر وربنا عز وجل لا يخلف الميعاد . حتى ان بعض العلماء من هذه الطايفة ذهب الى انه لا ينبغي لصاحب هذه الحالة ان يسأل من احد ان يدعو له وقال : الاجابة انما هي مضمونة في دعائه لا في دعاء غيره . وقد حكي ان امرأة جاءت الى الجنيد فقالت ادع لي فان ابناً لي ضاع فقال لها اذهبي واصبري فمضت ثم عادت وقالت مثل ذلك وفعلت مثل ذلك مرات والجنيد يقول اصبري. فقالت عيل صبري ولم يبق[٢] لي طاقة فادع لي . فقال الجنيد ان كنت[٣] كما قلت فاذهبي فقد رجع ابنك فمضت ثم عادت تشكر الله[٤] . فقيل للجنيد بم عرفت ذلك فقال لقوله تعالى « أمن يجيب المضطر اذا دعاه »[٥] . وعلامة المضطر اياسه من نفسه وتبرؤه من حوله وقوته وان لا يرى عند فجأة الامر الملم به كاشفا ولا دافعا الا الله[٦] مولاه . كما قال بعض العارفين : معبودك اول خاطر يخطر لك عند المهمات . وقال بعض العارفين في معنى قول الله تعالى « امن يجيب المضطر اذا دعاه » فقال: المضطر الذي يقف بين يدي مولاه فيرفع اليه يديه بالمسئلة فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئاً فيقول هب لي مولاي بلا شي. . فهذا هو المضطر مع ما تنالون في هذه الحالة من مزية القرب وخاصية الحب . فلا معنى لحيرتكم وانتم متمكنون من هذا .

وان لم تظهر لكم اجابة ولا اعتقدتم توبة ولا انابة مع بقائكم على الحال المذكورة من لزوم الباب وقطع الاسباب فانتم في ذلك بين خلتين : اما ان تجزعوا وتضطربوا او تصبروا وتحتسبوا . اما الجزع والاضطراب فلا وجه له ها هنا لانكم حصلتم في الامان ووصلتم الى حقيقة الايمان فلا يخشى عليكم ان تقعوا في مثل هذا التنافي الحالين فلم يبق الا الصبر والاحتساب وفي هذه الحال[٧] يكون ترك الاجابة اجابة وقد قال ابن عطاء الله[٨] : « اذا فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء » وقال ايضاً : « متى اعطاك اشهدك بره ومتى منعك اشهدك قهره . فهو في كل ذلك متعرف اليك

١) ف ق س : + دعوة ‖ ٢) ف ق ر س: نبق ‖ ٣) ف ر س: كان ‖ ٤) ف ر س : له ‖ ٥) قرآن : ٢٧ : ٦٢ ‖ ٦) ف ق ر س : - الله ‖ ٧) س : الحالة ‖ ٨) ف ق ر س : - الله ‖

ومقبل بوجود لطفه عليك » . ثم لكم في هذه الحالة مشاهدات ومنازلات تستريحون[1] اليها وتجدون المزيد بهما وتكون ان شاء الله سببا في حصول غرضكم والبرء من مرضكم اذ تشاهدون ربكم تعالى وجل بصفة الكبرياء والاستعلاء وما هو عليه من كمال الاستيلاء والاستغناء وتشاهدون انفسكم ايضاً محلّا لنفوذ قدره وقضائه وظهور آثار صفاته واسمائه فان دمتم على تكرار[2] هذا بقلوبكم وصار لكم ذلك شغلًا شاغلًا عن كثير من اموركم تجدد عليكم ان شاء الله تعالى[3] منازلات[4] احوال سنية ومقامات علية كالمحبة والرضى والمعرفة والخوف . ثم لا شك في ان هذه صفات كمالية ومواهب ربانية يستدل بها من اظهرت عليه واقيم فيها على انه مراد مقرب مكرم محبب وتكون هذه المشاهدة تقتضي منازلة احوال ومقامات اخر كمقام الصبر والشكر والرجاء والحياء والتوبة وقد يكون هذا كله في لحظة فتنجبرون من حيث انكسرتم وتقبلون الى من[5] منه فررتم . وفي الصحيح من حديث ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » . وقال ابراهيم بن ادهم : طفت ذات ليلة بالبيت وكانت ليلة مظلمة ذات مطر ورعد فخلا الطواف فلما انتهيت الى الباب قلت اللهم اعصمني حتى لا اعصيك ابدًا . قال : فسمعت قايلًا يقول من جوف البيت يا ابراهيم انت تسألني العصمة وكل عبادي يسألني[6] العصمة فاذا عصمتهم فعلى من اتفضل والى من[7] اغفر .

فان لم تصدقوا في التجايكم وافتقاركم وبقيتم في عماكم واغتراركم الا انكم كارهون لاحوالكم التي انتم عليها شديد حرصكم على ان تجدوا سبيلًا الى الانتقال عنها ماقتون لانفسكم متأسفون على تفريطكم وتضييعكم فلكم ها هنا معاملات قلبية وبدنية فلتسلكوا طريق ربكم عليها ولا يمنعكم من ذلك ما انتم عليه من المرض . وقد[8] قال بعض الكبار[9] : سيروا الى الله عرجا ومكاسير .

---

١) ف س: تستروحون ؛ ص خ: تستريحون ؛ ر: تسترحون ‖ ٢) ف ق ر س: تذكار ‖ ٣) س: + بسبب ذلك ‖ ٤) ف ق ر: منازلة ‖ ٥) ا: ما ‖ ٦) ف س: يسألوني ؛ ق: يطلبون ٧) ف ق ر س: ولمن ‖ ٨) س: فقد ‖ ٩) س: الاكابر ‖

واقرب طريق لكم[١] اليه ان تحافظوا على مقام الشكر وتوفوه حقه والتمسوا الزيادة من قبله وذلك بان تستحضروا في قلوبكم عظمة ربكم وكبرياءه وما هو عليه من صفات الكمال والتعالي وتستشعروا خسة انفسكم ومهانتها وحقارة قدرها وما هي عليه من صفات الدناءة والنقص وتنظروا الى ما انعم به عليكم من نعمة كاينة ما كانت فاذا وفيتم النظر في ذلك حقه عرفتم حينئذ قدر نعمته عليكم فقمتم بشكرها . ومعرفتكم بقدر النعمة هو شكرها وهو مفتاح كل خير وسبب المزيد في كل[٢] فلاح وبر . قال ربنا عز وجل : « لئن شكرتم لازيدنكم »[٣] . وقال تعالى : « فاذكروا الاء الله لعلكم تفلحون[٤] . فلا شيء انفع للعبد عند مولاه من ذلك لانه الصراط المستقيم الذي قعد الشيطان به ليصرف عنه سالكيه ويصدهم عنه كما قال تعالى اخبارا عنه : لاقعدن لهم صراطك المستقيم الى قوله : ولا تجد اكثرهم شاكرين[٤ب] . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر الا تزدروا نعمة الله عليكم » . ولا شك انكم تعلمون من نعم ربكم عليكم في دينكم ودنياكم ما لا تقدرون على احصائه . ومن جملتها بل من اعظمها كراهتكم لما انتم عليه من الاحوال المذكورة وذلك من نتائج الايمان لقوله صلى الله عليه وسلم : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » . وكم من شخص مبتلى باكثر من ذلك ثم لا يجد في قلبه كراهية بل استلذاذا لذلك وفرحا به.

وقد كنتم في ابتداء امركم فيما اظن كذلك[٥] على هذه الحالة السيئة فرحمكم ربكم وانعم عليكم بان ابدلها لكم بما تحمدون عاقبته وتجدون منفعته ان شاء الله تعالى من غير حول منكم ولا قوة . فلتفرحوا بفضل ربكم عليكم فيستغرقكم[٦] ذلك ويشغلكم[٧] عن كثير مما انتم عليه وتستوجبون بذلك رضوان ربكم عليكم[٨] . وقد اوحى الله عز وجل الى بعض انبيايه : ادرك[٩] لطف الفطنة وخفي اللطف فاني احب ذلك فقال : يا

١) ف ق ر س: البكم ‖ ٢) ق : + حال ‖ ٣) قرآن : ١٤ : ٧ ‖ ٤) قرآن : ٧ : ٦٧ ‖ ٤ ب) قرآن : ٧ : ١٦–١٧ ‖ ٥) ف ق ر س: – كذلك ‖ ٦) ا: فيسترکم؛ س: فليستغرقكم ‖ ٧) س: فليشغلكم ‖ ٨) ف ق ر س: عنكم ‖ ٩) ف ق س: + لي ‖

رب وما لطف الفطنة وما خفي اللطف قال : لطف الفطنة هو ان وقعت عليك دبابة فاعلم اني أنا[1] اوقعتها عليك فسلني[2] رفعها عنك . واما خفي اللطف فهو ان وردت عليك فولة مسوسة فاعلم أني ذكرتك بها فاشكرني عليها . فلتتخذوا تلك الحالة المحمودة التي انعم بها ربكم عليكم عبرة وتشتغلوا بتربيتها[3] بالشكر عليها لربكم والاستزادة منها وتعتدوا ما انتم عليه من الجزع والهلع والانقباض والضيق نعما سابغة وحكما بالغة وتحتسبوا ثوابها عند ربكم عز وجل . وقد حكي عن بعض المشايخ انه رأى شابا بعد الموسم دخل مكة منقبضا منكسرا محزونا كما يكون المنقطعون فقال له ذلك الشيخ : انا حججت كذا وكذا مرة فهب لي هذه الحسرة التي انت فيها وأهب لك تلك الحجات كلها . ولتتحققوا من ذلك انه صرف عنكم بسببها آفات مهلكة وصفات موبقة مثل الكبر والعجب وانواع من الغرور وكذلك كل ما يعرض عليكم[4] مما يزعج نفوسكم ويؤلم قلوبكم من امثال هذا.

ورؤيتكم انكم اشرفتم على الهلاك هو عين سلامتكم وغنيمتكم عند العارفين المحققين اذ لو لم تروا ذلك كان مرضاً يجب عليكم علاجه . وقد قال رجل لحذيفة رضي الله عنه : اني اخاف ان اكون منافقا فقال : لو كنت منافقا ما خفت النفاق . واهم ما على المريد مراعاة هذه الخصلة وحرصه على على ان تكون[5] فيه فبذلك يزكو عمله وينجح سعيه ويكون ذلك دليلًا على صحة مقصده وصدق ارادته . فكم من شخص متعبد مجهد عامل بظواهر الطاعات مجتنبا لظواهر السيئات وهو مع ذلك معجب مغتر متكبر فهو بجهده[6] وكده سالك سبيل طرده وبعده . وكم من شخص ترك الدنيا ورفضها ورد نفسه الى قدر يسير منها وفاسق من الفساق المنهتكين[7] اعلى منزلة منه عند ربه لان من اشهد البعد في القرب فهو ملطوف به في وجود الخوف فيرقى بذلك درجات عليا ، ومن اشهد القرب في البعد فهو ممكور به في وجود الامن فيتردى بذلك الى دركات سفلى . وقد قال ابن عطا. :« ربما فتح لك[8] باب الطاعة وما فتح

١) ا : – انا ‖ ٢) ر س: فتسألني ؛ خ : فسألني ‖ ٣) ر : بترتيبها ‖ ٤) ف ق ر س : لكم ‖ ٥) ا : يكون ‖ ٦) ر : بجده ‖ ٧) ف ق ر س : المتهتكين ‖ ٨) ف ق : عليك ‖

لك باب القبول وقضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول » . وهو المعنى بقول بعضهم : رب ذنب ادخل صاحبه الجنة . فان[1] انضاف الى ذلـك تفطنكم بخفايا[2] عيوبكم وما سترته النفس من هواها عليكم فذلك اعظم نعمة ومثل هذا مما يغتنمه الاكياس على ألسنة اعدايهم فكيف في مثل هذه الحالة.

وقولكم : ان في ذلك تكثيرا للحجة عليّ . فالحجة لربكم عليكم في كل حال سواء عرفتم ذلك او لم تعرفوه وحبذا قيام الحجة للمولى على عبده فان رزقتم انابة واقلاعا عن بعض ذلك فنعمة جزيلة سواء كان في ذلك تعويض بما فيه حظ لكم او لم يكن لان المعوض المنتقل اليـه لا يكون ابدًا الا اخف وادنى من المنتقل عنه في هذا الحال .

فلتغتنموا ما بينهما من التفاوت ولعل ذلك يكون تدريجا للاقلاع التام . فاذا عرفتم سر هذا لم تكترثوا بشدة ولم تبالوا بكربة بل عددتموها نعما كما ذكرناه .

فان قلت : عدم الاكتراث بها وعدها نعما مما يخفف وقعها على القلب فيؤدي ذلك الى نقض ما اصلتم من ان كل ما نغص النفس وازعج القلب فهو افضل فقد ادى الى ترك الافضل بما ذكرتموه . ويؤدي ايضا الى استحقار المعاصي والذنوب لفتور الخوف والحزن .

فالجواب عن الاول ان هذا التخفيف ها هنا محمود وهو ارجح مما ذكرته لما في وجوده من النفع ولما في عدمه من الضرر المتوقع . اما المنفعة في وجوده فلانه عامل في استخراج خفايا اللطف ودقائق النعم واستشعاره سابغ[3] الفضل والكرم فيرقى بذلك الى مقامات ما اليقين وكل ما ادى الى مثل هذا فلا يوازيه في الفضيلة شيء البتة . واما الضرر في عدمه فهو ان صاحبه اذا دام على ما هو به وشغل به قلبه وعقله استضر[4] بذلك من احد وجهين : احدهما اداؤه له الى اليأس والقنوط وهما من اكبر الكباير والثاني[5] اداؤه له الى استيلاء الوسوسة عليه وقد يختل عقله بسببها . وحفظ العقل[6] وصونه عن عروض الوسوسة واجب لانه[7] عمدته في طريقه التي هو سالكها وما كان ولي قط

١) ق : فاذا ‖ ٢) ر س: لخفايا ‖ ٣) ف: سابق ‖ ٤) ر: استحضر ‖ ٥) إ: – اداؤه . . . والثاني ‖ ٦) ر : بالعقل ‖ ٧) ر : لأن ‖

ناقص العقل ٠ وبمعنى ما ذكرناه يضمحل الخيال الثاني وهو انه يودي الى استحقار المعاصي والذنوب فان هذه الحالة تسرع به الى الاقلاع والتوبة ابلغ مما يسرع به الخوف والحزن عما ذكرناه مجردين[1] لانه يصحبه فيها مشاهدات تؤديه الى مقامات تقلعه عن هواه في اسرع وقت وذلك كمثل الحياء من ربه عز وجل لان الحياء صفة في العبد تتولد بين معرفته بقدر مولاه وعلو شأنه وعظيم سلطانه ومعرفته بخسة نفسه ومهانتها ونقصها وتقصيرها في طاعة مولاها . ولا شك ان استعظام المعصية من اجل حيايه من ربه اعلى واكبر من استعظامها من قبل خوفه منه لانه في حال خوفه ناظر الى نفسه وفوات حظها بالوقوع في المعصية وفي حال حيايه ناظر الى ربه باجلال وتعظيم محترزًا من ان يراه مرتكبا ما يكرهه منه . وقد قيل : كثير من يترك المعصية حذرا من عقوبته وقليل من يتركها[2] حياء من اطلاعه ورؤيته . وهذا هو وصف المراد وما ذكرتموه صفة المريد وبينهما عند العارفين بون بعيد .

وما ذكرناه ايضاً ادخل في وصف العبودية لانه في مقام مشاهدة الربوبية متأدباً بين يدي ربه عز وجل قاصرا نظاره عليه والمتصف بالعبودية مكفي مقضي الحوائج بدليل قوله تعالى . « اليس الله بكاف عبده »[3] . فمن الله كافية فهو لا محالة شافيه ومعافيه . على ان ما توهمه السائل من فتور الخوف لا يصح لان الخوف في هذا الموطن انما نشأ من معرفة العبد بنفسه وخدعها وشرورها ومن عرف نفسه حتى المعرفة رأى انها اعدى العدو له لان دواعيها كلها مصروفة الى اقتحام ما يسخط مولاه عليه ويوجب له غضبه وعقابه وقد تخدعه فتوقعه في الشر من حيث الخير ولا يشعر بذلك وقد تعده بالنصرة فتخلفه وتخذله احوج ما يكون اليها وتحرص على هلاكه وخسارته[4] فاي[5] عدو اعدى له منها وقد اخبرنا بذلك ربنا عز وجل بابلغ وجوه الاخبار واشدها تأكيدا فقال تعالى :« ان النفس لامارة بالسوء »[6] . فصفاتها المرذولة لا يتصور ان ينفك عنها بشر الا برحمة من الله تعالى وعنايته[7] . كما قال تعالى في الاستثناء :« الا

١) ف ق رس: مجردين عما ذكرناه ‖ ٢) ر : يرتكبها ‖ ٣) قرآن : ٣٩ : ٣٧ ‖ ٤) فدس: وخسارته ‖ ٥) إ: واي ‖ ٦) قرآن : ١٢ : ٥٣ ‖ ٧) فدس: وعناية ‖

ما رحم ربي»[1] . فكيف يتوهم فتور الخوف مع هذا كله فلا وجه اذا لما ذكره السائل بل ربما زاد وتضاعف بسبب تزيد المعرفة الحقيقية بالنفس لان ذلك من اعظم نعم الله تعالى على[2] عبده وكثير من الناس قد فقد هذا ففقد ثمرته التي ذكرناها فتكون النعمة سبباً في وجود النعمة من غير نسبة شيء من ذلك الى عمل العبد . وينضاف اليه ما ذكرناه فتتضاعف الخيرات وتزيد وقد قال العارفون : ان مقامات اليقين لا يزيل بعضها بعضاً بل يزيدها تاكيدا ورسوخا.

وهاتان الصفتان الجليلتان اعني الحياء والخوف اذا تحققتا في العبد حصل منها ميراث شريف وهو ان يقذف الحق سبحانه[3] في قلبه نورا ويكون من ادنى فوايده ان يتفطن العبد به[4] لدقائق عيوبه وخفايا آفاته ويكون له معينا وناصرا على الطاعة لمولاه عز وجل كما قال ابن عطاء : «النور جند القلب كما ان الظلمة جند النفس فاذا اراد الله[5] ان ينصر عبده امده بجنود الانوار وقطع عنه مدد الظلم والاغيار» . وذلك بان يتراءى له كأنه رقيب حاضر موكل به اعني النور المذكور فمهما[6] هم بفعل من الافعال فان كان طاعة سارع اليها بنشاط وبصيرة وحسن احتساب وان كان معصية لم يجد من نفسه اقتحاما عليها لانها مقهورة ماسورة فيتركها طيبة نفسه بذلك وان وقع فيها بمادة جارية او شهوة غالبة[7] لم يجد لمنالها لذة ولا خفة بل يستثقلها ويكرهها وينغض بها . ومن فوائده ايضاً معرفته بقدر نفسه فتنتفي عنه اخلاق المتكبرين والمتجبرين فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين عباده فيتصف بالتواضع والذلة والخضوع والخشوع والانقياد للحق والشفقة وكف الاذى واحتماله والنصيحة للمسلمين ومحبة الخير لهم وادخال المسرات عليهم وحسن الادب بين يدي مولاه عز وجل بان يستعظم من ربه كل نعمة ينيله اياها ويستقل من نفسه كل عمل يعمله له فلا يعجب به ولا يُدِل[8] من حيث نظره الى نفسه ولا يرى لنفسه وسيلة الا فضل الله واحسانه ولا شفيعا الا كرمه وامتنانه ويكون سؤال المغفرة له[9] والعفو عنه اعلى طلبه كما قيل : العارف لا تسمو همته الا الى طلب المغفرة . وقال تعالى

---

١) قرآن : ١٢ : ٥٣ ‖ ٢) ر : – عليه ‖ ٣) ف ق ر س : تعالى | ٤) إ : – به ‖ ٥) س : + تعالى ‖ ٦) ف س : فهمى ‖ ٧) ف : خفية ‖ ٨) إ ر : يذل ‖ ٩) إ ر ق : – له ‖

اخبارا عمن رضي عنهم : « وكأيّن من نبي قُتِل[1] معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله[2] يحب الصابرين[3]. ثم قال[4] : « وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا »[5]. ويحكى عن ابن المبارك انه خرج يوما على اصحابه فقال: تجاسرت البارحة على الله تعالى فسألته الجنة . الى غير ذلك من محاسن احوالهم وسني خصائلهم نفعنا ربنا بمحبتهم .

فاذا كنتم متمسكين من هذه الخيرات كما ذكرته لكم فلِمَ تهملونها[6] وتعملون في حرمان انفسكم منها وتقطعون زمانكم النفيس في مضادة قضاء ربكم وكراهية مراعاة منكم حتى يؤل الامر الى ما ذكرتم وقد قال ابن عطاء : « ما ترك من الجهل شيئاً من اراد ان يحدث في الوقت غير ما اظهره الله فيه » .

ويمكن لكم[7] مع ذلك ورد من الذكر يتضمن التبري من الحول والقوة وكيفية من الاستغفار تمحوا عنكم اثار الكدورات[8] التي تحللت في[9] بواطنكم واكثار مما نادى به نبي الله يونس عليه السلام ربه في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين[10] لقوله تعالى « فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المومنين »[11]. قال بعض العلماء : كل من قال من المومنين اذا اصابه هم او استقبله مهم مثل ما قال ذو النون نجاه الله[12] كما نجى ذا النون لقوله : « وكذلك ننجي المومنين » . هذا كله نظر فيما كان من احوالكم ذنبا[13] ومعصية .

واما العيوب التي اشرتم اليها من عدم سكون النفس عند الابتلاء وجزعها من توقع الشدايد والمولمات واضطرابها وعدم صبرها فذلك من العيوب المطبوع عليها الآدمي والمركوزة في جبلته وليس ذلك بمذموم مطلقا بل ربما كان محمودا

---

١) [كذا] ‖ ٢) ق : — يحب الصابرين ‖ ٣) قرآن : ٣ : ١٤٠ ‖ ٤) ف ق : تعالى ‖ ٥) قرآن : ٣ : ١٤١ ‖ ٦) إ : ضلوها ‖ ٧) إ : منكم ‖ ٨) ف ق : الكوارث ؛ ف ط : قيل الواو مبسورة في نسخة الشيخ ‖ ٩) ف ق س : — في ‖ ١٠) قرآن : ٢١ : ٨٧ ‖ ١١) قرآن : ٢١ : ٨٨ ‖ ١٢) ف ق س : — الله ‖ ١٣) ف ق : ذنب ‖

في بعض الاحوال لان العبد يشاهد في ذلك ضعفه وعجزه وذله وفقره وفاقته. وقد قال ابن عطاء: «خير اوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وترد الى وجود ذلتك». وقال ايضاً: «ورود الفاقات اعياد المريدين» وربما وجدوا من المزيد في الفاقات ما لا يجدونه في الصوم والصلاة. وقد يبتلي الحق تعالى بذلك بعض الخواص. يحكى عن ابي عثمان الحيري انه كان عند ابي حفص استاذه فمد يده الى زبيبة فاخذ ابو حفص على حلقه واسترده[1] منه فلما سكن ابو حفص قال له ابو عثمان يا استاذ انا اعلم انه ليس للدنيا عندك خطر فكيف ضايقتني[2] في زبيبة فقال ابو حفص: من ذا يثق بقلب لا يملكه صاحبه. وقال بعضهم: كنت مع الخواص في سفر فنزلنا تحت شجرة فجاء اسد فربض بقربنا ففزعت فزعا شديدا وعلوت الشجرة فقعدت على غصن الى الصباح من خوف الاسد وقام الخواص ولم يحفل به فلما كان الليلة الثانية نزلنا في مسجد فنام الخواص فوقع على وجهه بقة فضج فقلت: ان في هذا لعجبا. لم تحتشم البارحة من الاسد وجزعت الليلة من البقة. فقال ان البارحة كنت ماخوذا عني والليلة انا مردود علي فلهذا جزعت. وقال سهل بن عبدالله رضي الله عنه: ان الله تعالى يلقي على الخصوص الفاقة ويحوجهم الى الخلق بالطمع فيهم ويلقي في قلوب الخلق المنع لهم يحرمهم ما في ايديهم ليردهم اليه فاذا رجعوا اليه آيسين منقادين رزقهم من حيث لا يحتسبون. ويحكى ان رجلًا راى بعض العارفين ممن كان يشير الى التوحيد وقطع الاسباب والاستغناء بالله تعالى عن غيره على باب نصراني يسأله شيئاً وقد بلغت به الفاقة والحاجة كل مبلغ فقال له في ذلك فانشأ يقول:

إذَا كُنَّا بِهِ نُتهَنَا دَلَالًا عَلَى كُلِّ ٱلْمَوَالِيَ وَالعَبِيد
وَلٰكِنَّا إذَا عُدْنَا إلَيْنَا يُعَطِّلُ ذِلُّنَا ذِلَّ اليَهُود

وانما المذموم من ذلك استتباع النفس للقلب وغلبتها عليه بطبعها لاجل ضعف اليقين فيرجع حاصله الى ما تقدم في قسم الذنوب.

فلتشتغلوا بالمعاملات المتقدمة وليكن لكم عند نزول شيء من ذلك

١) س: واستردها ؛ ف ط: قيل «واسترده» في نسخة الشيخ بالتذكير ||
٢) س ط: عن «خانقتني» ||

والمامه بكم وغلبته عليكم نحقق بصفات العبودية وابتهال وتضرع الى ربكم عز وجل بالدعاء والنداء. فلتنادوه[١] من بساط الفقر : يا غني من للفقير غيرك . ومن بساط الضعف : يا قوي من للضعيف غيرك . ومن بساط العجز : يا قادر من للعاجز غيرك . ومن بساط الذل : يا عزيز من للذليل غيرك . فقد قال بعض العارفين : من لازم ذلك كانت الاجابة طوع يده[٢] . وقال ابن عطاء : « تحقق باوصافك يمدك باوصافه[٣] . تحقق بضعفك يمدك بقوته » .

وعليكم بتقوية اليقين واستعينوا على ذلك بان تواضبوا على النظر في علوم الصوفية وتجعلوا ذلك آكد اشغالكم ولا تقدموا على ذلك الا فرضا واجبا ولا تلتفتوا الى من يصدكم عنها او يقدح لكم فيها حالا او مقالا او[٤] تصريحا او تلويحا . فقبيح بالعاقل اللبيب ان يدخل في امر ولا ينصره فضلا عن ان يصرفه عنه صارف كما[٥] ذكرناه .

وقد كنت ذكرت لكم في الكتاب المتقدم ذكره ما يقرأ من كتب القوم وان المقدم[٦] عليها من كل وجه هو كتاب الشيخ ابي طالب . فليكن حرصكم على تحصيل هذا الكتاب والنظر فيه كمثل[٧] حرصكم على تحصيل ما يزيل عللكم ويبرئ مرضكم فهو هو لو عقلتم فهو قوت القلوب والموصل الى كل غرض مطلوب وخذوا فيما يعز لكم من اموركم وتضيق بسببه[٨] صدوركم مع شخص موقن صحيح الحال ولا اعلم من اخذ بحظ وافر من هاذين الوصفين في هذا الزمان الا سيدي سليمان[٩] بارك الله له فخذوا عنه ما ينفعكم في مواجيد قلوبكم ويحفظ به عليكم حالكم مع ربكم .

وليكن لكم كيفية من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقد رأيت بعض العارفين اشار الى ان لها تأثيرا في تقوية اليقين . فلتكثروا من ذلك .

---

١) ف ق س : فتنادوه ‖ ٢) [انظر شرح الحكم ج ٢ ص ١٤] ‖ ٣) ف ق ر س : + تحقق بذلك يمدك بعزه . تحقق بعجزك يمدك بقدرته ‖ ٤) ف ر س : او ‖ ٥) ف ر س : مما ‖ ٦) ف ق س : المتقدم ‖ ٧) ر : كمثال ‖ ٨) ق : به ‖ ٩) ط : هو البازغي رحمه الله ؛ ف ط : « هو البازغي رحمه الله » . كذا بخط سيدي يحيى السراج في طرة الاصل الذي عليه خط المؤلف . وسيدي سليمان هذا هو الذي كان ومة الميون وهو غير سيدي سليمان بن عمر رضي الله عنهم اجمعين ‖

فهذا ما رأيناه لايقا بكم في ازالة عللكم وبرء مرضكم ان عملتم به[1] وإن[2] لم تعملوا[3] به ولم تتداركم جذبة من جذبات الرحمن توقفكم على الغرض المطلوب من غير سبب ظاهر وحرمتم الف سنة في تحصيل مـا رغبتم مجتهدين في الوصول الى ما طلبتم لا اظن انكم تصلون الى ذلك ابدًا بل لم تزيدوا بذلك الا بعدًا. فاذا استوفيتم جميع هذه المعاملات واستراحت قلوبكم من المشوشات فقد تعرضتم بذلك لمهاب الرحمات .

ثم عليكم ان تستديموا هذه المعاملات في باقي عمركم . . وجميع ما ذكرناه في هذه النبذة نبهناكم فيه على منهج قريب في السلوك يفضي الى الغرض المقصود بتوفيق ربنا عز وجل . امـا كونه قريباً فلانه سبيل روحاني لا عمل للجوارح فيه الا بحسب التبع ولا مشقة فيه على النفس[4] فتضيق منه . فكان قريباً من هذا الوجه . واما افضاؤه الى المقصود قطعا فلانه محض تعلق بالله عز وجـل ونظر اليه وعكوف بالهمّ عليه على سبيل الدوام وفي هذا من قرة العين ما لا يقدر قدره وهذا هو ابتداء الوصول الذي يشير اليه الصوفية . فاذا استمر عليه تحقق به . وقد قال سهل بن عبد الله : العبد لا بد له من مولاه على كل حال واحسن حاله ان يرجع اليه في كل شيء . اذا عصى يقول : يا رب استر عليّ . فاذا افرغ من المعصية قال[5] : يا رب تب عليّ . فاذا تاب قال: يا رب ارزقني العصمة . فاذا عمل قال : يارب تقبل مني . وقال بعض العارفين في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « يسّروا ولا تعسروا » قال: معناه دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فانّ من دلك على الدنيا فقد غرك[6] ومن دلك على الاعمال فقـد اتعبك ومن دلك على الله فقد نصحك .

ولا يصح[7] سلوك هذا الطريق الا لمن كان له قلب حي بالايمان وعلامة ذلك ان يكون يقظانا منتبها متأثرا[8] بالطوارق والعوارض الواردة عليه من جهة الدين قبضا وبسطا . اما من مات قلبه حتى لا يتأثر بشيء من ذلك ويكون غريقاً في شهواته قرير العين بسيء حالاته فحرام عليه ان ينظر في هذا كله لانه

---

١) إ : علمتم ‖ ٢) ف ر س : فـان ‖ ٣) إ : تعلموا ‖ ٤) ر : النفوس ‖
٥) ف : يقول ‖ ٦) ر س : غشك ؛ س خ : غرّك ‖ ٧) ف ق : يصلح ‖ ٨) ف : – متأثرا ‖

لا يزيده معرفة ذلك كله[١] الا شرا ولا النظر فيه الاضلالا وخسرا[٢] فليجتنبه اجتنابه للسم القاتل بل يشتغل بما ورد في الكتاب والسنة واقاويل العلماء من التحذير عن ارتكاب المعاصي ويستحضر في عقله ما ورد في ذلك من الاحكام والعقوبات في الدارين فلا دواء له الا ذلك .

ولولا ما رايتكم بخلاف هذا الوصف المذموم ما وسعني ان اكتب من ذلك حرفا . فاعتمدوا على ذلك واعملوا به فهو سبب مبلغ ان شاء الله[٣] ربنا[٤] عز وجل : « والله غالب على امره ؛ ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده »[٥] . واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

[الرسالة الثالثة]

كتاب يتضمن بيان التقليد والبدعة وما اشتملا عليه من القبائح[٦] والمفاسد

اسلم عليكم واعرفكم بوصول كتابكم الينا تعلمون فيه بوصول جوابنا اليكم وانه وقع منكم موقعا اقتضاه حسن ظنكم وسلامة اعتقادكم وطلبتم منا فيه بيان التقليد والبدعة اللذين اشرت اليهما في الجواب المذكور وان اكتب اليكم نبذا في ذلك .

فاعلم ان هذين المعنيين قد ورد الشرع بذمهما وعيب المتصف بهما .

اما التقليد فهو نوع من انواع البدع التي يأتي ذكرها وهي[٧] عبارة عن اتباع الغير من غير دليل ولا حجة كمن يقلد شخصاً لعظم محله عنده او[٨] امة من الناس لكثرتهم او قدم[٩] زمانهم . وقد عاب الحق تعالى ذلك على طوايف من الكفرة في آي كثيرة من القرآن فقال تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[١٠] — اشاروا بذلك الى عظيمي القريتين الوليد بن المغيرة بمكة ومسعود بن عمر بالطايف واستبعدوا نبوة المظيم القدر حقا واتخذوه

---

١) ف ر س : — كله ‖ ٢) ق : وخسرانا ‖ ٣) ق ر : — الله ‖ ٤) س : — ربنا ‖ ٥) قرآن : ١٢ : ٢١ ؛ ٣ : ١٥٤ ‖ ٦) س : المقابح ‖ ٧) ف ق س : وهو ‖ ٨) ف : و ‖ ٩) س : لقدم ‖ ١٠) قرآن : ٤٣ : ٣٠ ‖

هزوا لكونه يتيم ابي طالب كما قال تعالى : « واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا »[1] . ولما اقترح كفار قريش على نبينا عليه السلام الايات حين دعاهم الى دين الحق طلبوا منه ان يحيي لهم قصي بن كلاب عظيما من عظمائهم فيسألونه عما جاء به النبي عليه السلام ويقلدونه ويرجعون اليه . ولما حضرت ابا طالب الوفاة وعنده نفر من قريش فيهم ابو جهل جاءه النبي عليه[2] السلام فدعاه الى التوحيد فقال له اوليك النفر : يا ابا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فعاد له النبي صلى الله عليه وسلم بالنصيحة وعادوا[3] له بمقالتهم فكان آخر ما تكلم به ان قال هو على ملة عبد المطلب فنزلت هذه الآية :« انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء »[4] (الآية) وهذا كله تقليد بمجرد التعظيم . وقال تعالى مخبرا عنهم :« انا وجدنا آباءنا على امة »[5] . لانهم كانوا يعظمون اباءهم وربما حلفوا بهم . وقال تعالى مخبرا عن قوم صالح عليه السلام: « ابشرا منا واحدا نتبعه »[6] . فانكروا اتباعهم لواحد . ودليل ذلك انه لو بعث اليهم عدد منهم لاحتمل اتباعهم لهم . وهذا تقليد بمجرد الكثرة وقال تعالى مخبرا عن فرعون وقوم نوح عليه[7] السلام : « ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين »[8] . فمقتضى ذلك انه لو بلغهم عن اسلافهم ومتقدمي آبائهم ايمان بنبوة نبيهم لقلدوهم في ذلك واتبعوهم عليه . وهذا تقليد بمجرد قدم الزمان. ولم يعذر الحق تعالى سفلة الكفار في تقليدهم لرؤسائهم واضلال رؤسائهم لهم بل جمعهم معهم في الضلال وجعلهم مشتركين في العذاب والنكال . وقد شبّههم الحق تعالى لفرط جهالتهم وشدة غباوتهم بالحمر والانعام وحكم بافلاسهم عن ثمرات العقول والافهام .

واعلم ان هذه الصفة الذميمة قد استطار في هذا الزمان شررها وعم ضررها فترى المتفقه الغبي اذا قرع سمعه شيء من علوم التحقيق او علم من اعلام اهل التصديق يلوي خده ويقطب وجهه ويقول لفرط غباوته : لو كان هذا حقا لنص عليه فلان ولتداولته القرون والازمان . وترى المتصوف الجاهل

١) قرآن : ٢١ : ٣٧ || ٢) ف ق : + الصلاة || ٣) ف خ : وعاودوا || ٤) قرآن : ٢٨ : ٥٦ ؛ ف ق ر س : – ولكن الله يهدي من يشاء || ٥) قرآن : ٤٣ : ٢٢ || ٦) قرآن : ٥٤ : ٢٤ || ٧) س : عليهما || ٨) قرآن ٢٨ : ٣٦ ||

اذا ذكر عنده مسئلة من مسايل الاحكام ومعالم الحلال والحرام يتنكر جنبيه ويغتر بتزويره وتلبيسه ويقول لشدة جهالته : هذه ظواهر ورسوم ومخاطبات للعموم وقد كان سيدي فلان لا يقرأ ولا يكتب ولا ينتسب الى مذهب . وترى الفاجر الفيّار من ذوي الكباير والاصرار يقتدي بهفوات القدما. وزلات العلما. ويعتقد ذلك دينا متينا وحقا مبينا . وقد ينتهي الجهال باقوام الى ان لا يروا لاحد فضلا على من قلدوه من ايتهم ويستحقرون بذل مهجهم[1] في محاماتهم ونصرتهم . وامثال هولاء كثير ولا حاجة الى تكثير الامثلة . والمقصود ان تعلم ان مجالسة امثال[2] هولاء تبلد القلوب وتبعد[3] عن الغرض المطلوب ولذلك وقع تحذيرنا اياكم فيه فيما تقدم .

واعلم ان كل مسئلة مطلوب[4] فيها اصابة ما في نفس الامر وله مندوحة عن التقليد فيها بان ينظر الى[5] وجه الدليل المنصوب عليها اما على[6] جهة الوجوب كمسايل الاعتقادات او على غير جهة الوجوب كغيرها من المسايل . فالتقليد في ذلك مذموم سواء اتفقت اصابته ام[7] لم تتفق . فلا يدخل في هذا تقليد العامة للمجتهدين في المسائل الفقهية الفرعية لان المطلوب فيها اصابة ما غلب على ظن المجتهد ولا سبيل للعامي الى هذا الا بالتقليد . ولا يدخل فيه ايضا تقليد من يحتاج الى فن من فنون العلم لاربابه وان كان المطلوب فيه اصابة ما في نفس الامر اذ لا مندوحة له عن التقليد فيه كعلم التفسير والحديث والتاريخ والنحو واللغة والطب الى غير ذلك . فالتقليد[8] في نفسه مذموم لا ينبغي الاعتماد عليه الا عند الضرورة . الا ترى ان الابله البالغ في البله يسعه من التقليد في اعتقاداته ما لا يسع غيره اذا وافق الصواب . والله عز وجل اعلم .

واما البدعة فقد ورد في ذمها ايات كثيرة واخبار . قال الله عز وجل : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء »[9] . قال اهل التفسير : هم اهل الاهوا. والبدع . وقال تعالى : « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم »[10] اي عالمين بضلالتهم فيما احدثوا من التفرق والاختلاف طلبا

١) ق : مهجتهم ‖ ٢) ا : — امثال ‖ ٣) ف ق س : وتباعد ‖ ٤) ر : المطلوب ‖ ٥) ف ر س : في ‖ ٦) ا : من ‖ ٧) ر : او ‖ ٨) س : وحاصل الأمران التقليد ‖ ٩) قرآن : ٦ : ١٦٠ ‖ ١٠) قرآن : ٤٢ : ١٣ ‖

للبغي . وقال تعالى : «شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورًا»[1] — يعني حسنه وزينته ، الى غير ذلك من الآيات[2] . وحيث ما ما ورد في القرآن ذم اتباع الهوى واعتقاد الباطل والنهي عنهما فالاشارة فيه الى ما ذكرناه . وقال النبي[3] صلى الله عليه وسلم : من احدث في ديننا ما ليس فيه فهو ردّ . وقال عليه الصلاة والسلام : لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . وقال عليه السلام : شر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة. وقال النبي[4] عليه السلام: ان بني اسرائيل افترقت[5] على اثنتين[6] وسبعين ملة وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار الا ملة واحدة — قالوا : وما[7] هي يا رسول الله — قال : ما انا عليه واصحابي ، وفي رواية : ثنتان وسبعون[8] في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة وانه سيخرج في امتي اقوام تجارى بهم تلك الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله . وقال رجل لابن عباس اوصني فقال له : اتبع ولا تبتدع . وقال ابن مسعود : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم . وقال ايضاً : من كان مستنا فليستن بمن قد مات اوليك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الامة ابرها قلوبا واعمقها علما واقلها تكالفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا باخلاقهم وطرايقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم . وقال شريح : ان السنة قد سبقت قياسكم فاتبع ولا تبتدع فانك لن تضل ما اخذت بالاثر . وقال الشعبي : انما الرأي بمنزلة الميتة ان احتجت اليها اكلتها . وسأل رجل مالكا عن مسئلة فقال له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا فقال الرجل ارأيت فقال مالك فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم . وقال سفيان الثوري : البدعة احب الى ابليس من المعصية . المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . والاخبار والآثار في هذا المعنى كثيرة . والبدعة عبارة عما احدث على خلاف الحق المتلقى[9] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم او عمل

١) قرآن : ٦ : ١١٢ ‖ ٢) إ : الآفات ‖ ٣) ر: عليه الصلاة والسلام ‖ ٤) س: صلعم ‖ ٥) ف ق س : تفرقت ‖ ٦) إ : اثنين ‖ ٧) ف ق ر س : من ‖ ٨) إ : وسبعين ‖ ٩) ق : الملتقى ‖

او حال بنوع شبهة او استحسان وجعل ذلك دينا قويما وصراطا مستقيما وتعديد اصنافها يطول ولكنا نذكر هنا نبذة يستغني بها عن[1] تطويل[2] الكلام فيما لا فائدة فيه فنقول :

ان الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا الى جميع الانام وهاديا لهم الى دار السلام وكانوا اذ ذاك في جاهليـــة جهلاء وضلالة ظلماء. مشتتة[3] آراؤهم[4] مفترقة[5] اهواؤهم لم تأمرهم احلامهم الفاخرة الا باهمال النظر في مسالك العبر ولم تهدهم ألبابهم الوافرة الا الى عبادة حجر وشمس وقمر . فمنّ الله تعالى عليهم بان بعث فيهم رسولا من انفسهم وازكاهم وانفسهم. حلّاه باكمل الصفات واحسن الأخلاق ووفاه من مواهبه ومنحه نفايس الاعلاق . فلا جرم كان في ذاته وصفاته آية باهرة وحجــة قاهرة فخمدت نيران الضلالات[6] بطلوع انواره وامحت رسوم الجهالات[7] بظهور اثاره وزال الاختلاف وحصل الايتلاف وتواخى المومنون في الدين وتصافوا في طاعة رب العالمين وباعوا انفسهم لمالكها ومعتقها وقنعوا من الدنيا ببلغها وعلقها واستبشروا ببايعة الجليل وقالوا : ربحنا[8] البيع لا نقيل ولا نستقيل . واعتدوا صحبة[9] رسوله صلى الله عليـــه وسلم انفس الذخاير واقوى الاعتـــاد وفدوه من محبتهم له بمهج النفوس وقطع الاكباد وآثروه بالسبد واللبد وهجروا في مرضاتـــه الاهل والولد وبايعوه على الموت الاحمر وحازوا بمدحة: «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله »[10]. كل شرف باذخ ومفخر ــ الى غير ذلك من محاسن افعالهم واحوالهم .

وجميع ما ذكرناه شهدت به نصوص الكتاب ونقله الينا الثقات من اولي الالباب . وحاصل ذلك انهم اتفقوا على اقامة العبودية لربهم وكانوا يدا واحدة في اعلاء كلمة الله تعالى بنصرهم وذبهم اذ لم يجمعهم الله تعـــالى على شريعة واحدة الا ليألف بعضهم بعضاً به وفيه فيكونوا كشخص واحد كما قال تعالى : « انما المومنون اخوة »[11] . وقال : « والمومنون والمومنات بعضهم

---

١) إ : عن ‖ ٢) إ : طول ‖ ٣) ف ر س : منتشتة ‖ ٤) ر : اباؤهم ‖ ٥) ف ق س : متفرقة ‖ ٦) ف : الضلالة ‖ ٧) س : الجهالات ‖ ٨) ف ق ر س : ربح ‖ ٩) ر : بصحبة ‖ ١٠) قرآن : ٤٨ : ١٠ ‖ ١١) قرآن : ٤٩ : ١٠ ‖

اولياء بعض »[١] . ولذلك امر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة ونهى عن خلع اليد عن الطاعة فقال في الحديث الصحيح : من رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر فانه ليس احد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة جاهلية. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره : وانا آمركم بخمس أمرني ربي بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله وانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه الا ان يراجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم . واراد بقوله خلع ربقة الاسلام من عنقه اي فارق عقد الاسلام بترك السنة واتباع البدعة . وقال الشعبي : خرج ناس من اهل الكوفة الى الجبانة يتعبدون واتخذوا مسجدا وبنوا بنيانا فاتاهم ابن مسعود فقالوا : مرحبا بك يا ابا عبد الرحمن لقد سررنا ان تزورنا قال[٢] : ما اتيتكم زايرا ولست بالذي اترك حتى يهدم[٣] مسجد الجبان انكم لاهدى من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ارايتم لو ان الناس صنعوا كما صنعتم من كان يجاهد العدو ومن كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ومن كان يقيم الحدود ارجعوا وتعلموا[٤] ممن هو اعلم منكم وعلموا من انتم اعلم منه . قال واسترجع فما برح حتى قلع ابنيتهم وردهم .

فلما قبض الله تعالى نبيه[٥] عليه السلام الى رضوانه وبوّاه مبوّأ انعامه واحسانه خلفه في امته الخلفاء الراشدون الموفقون المسددون فجروا في ذلك على سنته وناضلوا عن دينه وسنته واستضاءوا بانواره الباهرة وآياته الزاهرة فبقي الحال على نحو ما كان عليه مدة بقايهم الى ان استأثر الله تعالى بهم . فلما ان[٦] انقضت دولة الاحسان والعدل وذهب القرن الموصوف بالخير والفضل خبت[٧] انوار اليقين بعد ظهورها وانتشارها وانتمشت صفات النفوس الامارة لاستعلايها واستكبارها وحدثت الاهواء والبدع وانصدع من شمل الدين ما انصدع ووقع الاختلاف والفرقة وتباينت مذاهب كل طايفة وفرقة واشتغلوا بالتبديع والتجهيل ودانوا بالتكفير والتضليل وحادوا عن سواء السبيل فتقاطعوا وتدابروا وتباغضوا وتنافروا وتحاسدوا وتناكروا حتى آلت بهم[٨] هذه الفضائح

١) قرآن : ٩ : ٧٢ ‖ ٢) ق : فقال ‖ ٣) إ : يهدم ‖ ٤) ف ق ر س : فتعلموا ‖ ٥) س : صلعم ‖ ٦) س : – ان ‖ ٧) إ : خفت ‖ ٨) إ ف : بينهم ‖

الى هتك الحرمات واراقة الدماء. وقادتهم هذه القبائح الى ابداء العورات بالقاء جلابيب الحياء. فباعوا دينهم بعوض[١] يسير وتعرضوا لمساخط من اليه المصير[٢]. ثم انتهى الامر الينا على هذا القياس ونفذ القدر علينا[٣] بتجرع هذا الكاس. «فانا لله وانا اليه راجعون»[٤]. وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال: انا أمنة لاصحابي فاذا ذهبت[٥] اتى اصحابي ما يوعدون واصحابي امنة لامتي فاذا ذهبتُ اتى امتي ما يوعدون او كما قال صلى الله عليه وسلم[٦]. وهذه ازمنة الفتن التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام وامر فيها بالانفراد والاعتزال عن الانام.

ونحن ذاكرون ها هنا شيئا من احاديث الفتن ذات البلايا والمحن تبركا بالاحاديث النبوية وتذكرة بالمعجزة الباهرة في وقوع مـا انذر به من الامور الغيبية. فقد قال رسول الله[٧] صلى الله عليه وسلم: كيف بكم وبزمان يغربل فيه الناس غربلة ثم تبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم واماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا — وشبك بين اصابعه — قالوا كيف بنا يا رسول الله. قال: تأخذون ما تعرفون وتذرون ما تنكرون وتقبلون على امر خاصتكم وتذرون امر عامتكم — وقال صلى الله عليه وسلم في حديث عبدالله بن مسعود: كيف انتم اذا لبستكم فتنة فتتخذ سنة يوافيها الصغير ويهرم فيها الكبير واذا ترك منها شيء. قالوا تركت سنة — قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله قال[٨]: اذا كثر قراؤكم وقل علماؤكم وكثر امراؤكم[٩] وقل امناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الله. قال عبدالله بن مسعود: فاصبحنا فيها. وقال صلى الله عليه وسلم في معنى قوله تعالى «عليكم انفسكم»[١٠]: ايتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى اذا رايتم شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا موثرة واعجاب كل ذي راي برايه فعليك بنفسك ودع العوام فان من ورايكم ايام الصبر الصبر فيها مثل قبض على الجمر للعامل فيها[١١] اجر خمسين رجلا يعملون

١) ف س: بعرض ‖ ٢) ر: — فباعوا... المصير ‖ ٣) س خ. البنا ‖ ٤) قرآن: ٢: ١٥١ ‖ ٥) إ: اتى امتى ما يوعدون ‖ ٦) [كذا] ‖ ٧) إ: — رسول الله ‖ ٨) ق: قالوا ‖ ٩) اموالكم ‖ ١٠) قرآن: ٥: ١٠٤ ‖ ١١) س خ: ايام الصبر فيها ‖

مثل عمله – قيل : يا رسول الله اجر خمسين منهم قال : اجر خمسين منكم – وقال صلى الله عليه وسلم : بادروا بالاعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مومنا ويمسي كافرا ويمسي مومنا[1] ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا . قال الحسن : معنى هذا يصبح محرما لدم اخيه وماله وعرضه فيمسي مستحلا لذلك . وقال صلى الله عليه وسلم[2] : انكم في زمان من ترك فيه[3] عشر ما امر به هلك ثم يأتي زمان من عمل فيه بعشر ما امر به نجا وان من ورائكم ايام الصبر الصبر فيه كالقبض على الجمر وان العبادة في الهرج كهجرة الي . وقال ابن عدي : دخلنا على انس بن مالك فشكونا اليه ما نلقي من الحجاج فقال ما من عام الا الذي بعده اشر منه حتى تلقوا ربكم . سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي حديث حذيفة : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت احدهما وانا انتظر الاخر . حدثنا ان الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن فقرؤا من القرآن وعملوا من السنة ثم حدثنا عن رفعها قال ترفع الامانة فينام الرجل ثم يستيقظ وقد رفعت الامانة من قلبه ويبقى اثرها كالكوكب[4] او كالمجل كجمر دحرجته على رجلك فهو يرى ان فيه شيئاً وليس فيه شيء . وترفع الامانة حتى يقال ان في بني فلان امينا[5] وان كان في بني فلان رجلا امينا . ولقد رأيتني حينا وما ابالي ايكم ابايع لئن كان مسلما ليردنه عليّ اسلامه ولئن كان معاهدا ليردنه عليّ ساعيه . فامّا اليوم فاني لم اكن لابايع منكم الا فلانا وفلانا . وفي بعض روايات هذا الحديث : ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل اثرها مثل اثر[6] الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى اثرها مثل اثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء . ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد احد يودي الامانة ويقال للرجل ما اعقله وما اظرفه وما اجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من الايمان[7] . وفي حديث ايضاً : كان الناس

---

١) إ : كافرا ‖ ٢) إ : – وسلم ‖ ٣) إ ف ر س : – فيه ‖ ٤) إ خ : كالوكد ف : كالوكت ؛ ط : في المنتسخ منه « كالكوكب » ولا احساله إلا سهوًا فأن التي في الحديث كما في الاصل هنا ؛ س خ : كالوكت ‖ ٥) إ : أمين ‖ ٦) إ : – اثر ‖ ٧) س : ايمان ‖

يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت اسأله عن الشر مخافة ان يدركني. فقلت يا رسول الله : انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم — قلت هل بعد ذلك[١] الشر من خير قال نعم وفيه دخن — قلت وما دخنه قال قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم[٢] وتنكر قلت فهل بعد ذلك الخير من شر قال نعم دعاة على ابواب جهنم من اجابهم اليها قذفوه فيها — قلت يا رسول الله صفهم لنا قال هم من جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا قلت فما[٣] تامرني ان ادركني ذلك قال تلزم جماعة المسلمين وامامهم قلت فان لم تكن لهم جماعة ولا امام قال فاعتزل تلك الفرق كلها. ولو ان تعض باصل شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك. وعن اسامة بن زيد : اشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على اطم من آطام المدينة فقال هل ترون ما ارى قالوا لا قال فاني ارى الفتن تقع في[٤] خلال بيوتكم كوقع القطر. وقال صلى الله عليه وسلم : انها ستكون فتن الاثم تكون فتن[٥] النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي. من تشرف لها تستشرفه فمن وجد ملجأ او معاذ فليعذ به. وقال صلى الله عليه وسلم : يوشك ان يكون خير مال المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن — فانظر هذا مع ما قدمناه عن ابن مسعود مع اولئك النفر المعتزلين يظهر لك التفاوت بين الازمنة. وقد قال ابن مسعود في زمانه ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر. والموت اليوم تحفة لكل مسلم. واحاديث الفتن اكثر من هذا.

وقد روى في بعض الاخبار : يأتي على الناس زمان يضلون دينهم فلا يعرفونه يصبح الرجل على دين ويمسي على دين يظل من امره على غير يقين تسلب عقول اكثر اهل ذلك الزمان فاول ما يرفع منهم الخشوع ثم الامانة ثم الورع. وقيل لابن المبارك : ايظهر بعد المايتين عدل فقال تذاكرنا ذلك عند حماد بن سلمة فغضب وقال : ان استطعت ان تموت بعد المايتين فمت فانه يحدث

---

١) س : هذا ‖ ٢) ق : منكم ‖ ٣) ر : فما ‖ ٤) ر س : — في ‖ ٥) س: انها ستكون فتنٌ النائمُ ؛ خ : فتن الاثم تكون فتن النائم ‖

في ذلك الزمان امراء فجرة ووزراء ظلمة وامناء خونة وقراء فسقة حديثهم في ما بينهم التلاوم يسمون عند الله الانتان .

فاذا كان هذا في زمانهم فما ظنك بزماننا هذا . فحق على العاقل اللبيب في هذا الزمان الغريب ان ينصح انفسه ويفر عن ابناء جنسه ويرتاد فيه قرين صدق وخدين حق سالك[1] مسلك السلف الصالح تارك[2] لما خالف المنهج الواضح فيقتص اثره ويتبع سيره فان الله تعالى لم يخل زمانا من الازمنة عن قايم بالدين حجة على الملحدين ينعش الله تعالى بهم حقوقه ويهدي بهم طريقه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من امتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي امر الله وقال علي رضي الله عنه في حديث كميل بن زياد الطويل حين تكلم في العلم والعلماء فقال في آخره : اللهم لا تخلو[3] الارض من قايم لك فيها بحجتك اما ظاهرا مشهورا واما خافيا مغمورا ليلا تبطل حجج الله وبيناته . وكم واين اولئك هم الاقلون عددا الاعظمون قدرا بهم يحفظ الله حججه حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها[4] في قلوب اشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الايمان فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وانسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى اولئك خلفاء الله في ارضه والدعاة الى دينه هاه هاه شوقا الى رؤيتهم واستغفر الله لي ولك يا كميل — انتهى كلامه — وقد يقلون في العدد حتى ينتهوا[5] الى واحد في القلة لكنه بمنزلة الجماعة والكثرة . فقد روي عن ابن المبارك انه سيل عن الجماعة المامور بلزومها فقال : ابو بكر وعمر فقيل مات ابو بكر وعمر فقال فلان وفلان فقيل قد[6] مات فلان وفلان فقال : ابو حمزة السكري جماعة . وقال سفيان الثوري في تفسير الجماعة : لو ان فقيها على رأس جبل لكان هو الجماعة وهذه اشارة الى ما قلناه آنفا .

وقد بعدنا عن المقصد[7] فلنرجع اليه . فجميع ما ذكرناه في هذه النبذة اشارة

---

١) س : سالكا ‖ ٢) إس : تاركا ‖ ٣) ف : تخلو . كذا ؛ ط : قيل كذا في النسخة التي عليها خط المؤلف غير معتنى به . والصواب « لا تخلِ » ؛ س : لا تخلِ الأرضَ ؛ خ : ارضك ؛ ق : تخلي ‖ ٤) إف : ويزرعونها ‖ ٥) ق: ينتهون ‖ ٦) ف ف ر: فقد ‖ ٧) المقتصد ‖

الى نوع واحد من انواع البدعة وهو ما يؤدي الى اختلاف وتنازع وتهاجر وتقاطع من اي وجه ادى الى ذلك ويقع ذلك بين مبطلين بسبب شدة التعصب من الجانبين وبين مبطل ومحق فينقسم الامر فيكون سببه من جهة المبطل هوى مرديا وشيطانا مغويا ومن جهة المحق قياما بواجب الدين ونصيحة للمسلمين . ويستحيل وقوعه بين محقين لفقدان السبب الموجب لذلك كالاختلاف الواقع بين اهل الحق من علماء الظاهر في المسايل الفقهية والاحكام الشرعية فان اختلافهم في ذلك رحمة اراد الله[1] ان لا يجعل علينا حرجا في الدين رحمة منه . وقد كان هذا الاختلاف واقعا بين الصحابة الجلة الموصوفين[2] بالموافة والرحمة المبرئين[3] من المقاطعة والبغضة وكلهم طالب للحق سالك سبيل الصدق . وقد قال عون بن عبدالله : ما احب ان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا فانه لو اجتمعوا على شيء فتركه رجل ترك السنة ولو اختلفوا واخذ رجل بقول واحد اخذ بالسنة . والسر في ذلك ما تقدم من ان المقصود في ذلك انما هو اتباع غلبة الظن لا اصابة ما في نفس الامر . وكالاختلاف[4] الواقع بين علماء الباطن في واردات القلوب ومقامات المحب[5] والمحبوب فانه كلا اختلاف في الحقيقة لانبنايه على اختلاف احوالهم وتباين اذواقهم وكل واحد منهم معبر عن وجده واقف على حده . ومعرفة المحق من المبطل غامض جدا فمن اراد ذلك فليكثر التحفظ للسنن والاثار والتنقير عن السير والاثار[6] ليتفقه في ذلك بقلب[7] سالم من التقليد سايل من ربه التوفيق والتايد .

وهذا النوع من البدعة واقع في العقايد والعلوم الظاهرة والباطنة والاعمال التي تضاد السنة بالكلية وهي التي سبق منا التحذير لكم من المتصف بها وان كان جميع انواع البدعة[8] حقيقة بذلك فقد قال بعض العلماء : موالاة اهل البدع بالمودة تذهب بانوار القلوب وتحسين افعالهم يورث المقت من الله والبعد منه . وقال سهل بن عبدالله : من داهن مبتدعا سلب حلاوة السنة[9] ومن ضحك الى مبتدع نزع نور الايمان من قلبه . وقال بعض العلماء : لا يفلح تايب من

١) رس: + تعالى ‖ ٢) إ: الموصوفون ‖ ٣) إ: المبرئون ‖ ٤) ف: والاختلاف ‖ ٥) إ: – المحب و ‖ ٦) ر: – والآثار ‖ ٧) ر: بقلم ‖ ٨) ف ر: البدع ‖ ٩) ف ر: السنن ‖

بدعة وان وجد معنى من الحق لم يجد معنى من الحقيقة .

ووراء هذه بدعات[1] كثيرة في العلوم والاعمال داخلة في رسم البدعة المذكور اولا منها ما يرجع الى وسوسة واسراف وغلو وتنطع وكلها مذمومة ليست من السنة في شيء . واذا فهمت ما ذكرناه علمت منه انه لم يحظ باتباع السنة الا هذه الطايفة المختارة من الصوفية قبل دخول الاحداث عليهم في هذه الاعصار فان من بداية امورهم التي ضل بعدم مراعاتها الزايغون مجاهدة انفسهم عن اتباع الهوى والمبالغة في ترك الدنيا. ومن نهاياتها انفراد قلوبهم بربهم واستهلاكهم في شهودهم وقربهم[2] وقد اندرج[3] في ذلك جميع وظايف الدين . ومقامات اهل المعرفة واليقين واحوالهم السنية ومقاماتهم العلية مواريث محافظتهم على الاداب الشرعية فلا ارتياب عند منصف في انهم فازوا من اتباع السنة بالحظ الاعلى وضربوا في ذلك بالقدح المعلى وانهم المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم: ان لله عز وجل ضنائن من عباده يغذيهم في رحمة ويحييهم في عافية اذا توفاهم[4] الى جنته اوليك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم هم[5] منها في عافية. وقد قال سيد هذه الطايفة وامامهم ابو القاسم الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى اثر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال ايضا : من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الامر لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وقال ايضا : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال سهل بن عبدالله : بنيت اصولنا على ستة اشياء : كتاب الله وسنة رسوله واكل الحلال وكف الاذى واجتناب الاثام والتوبة واداء الحقوق . وقال ابو[6] عثمان الحيري : من امّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن امّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة . قال الله تعالى . « وان تطيعوه تهتدوا »[7] . وقال ابن عطاء : « من الزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة » . ولا مقام اشرف من متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في اوامره وافعاله واخلاقه . وقال ابو حمزة البغدادي : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الى الله الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في افعاله واحواله

---

١) ف ق ر س : بدع ‖ ٢) إ : – في ترك . . . وقربهم ‖ ٣) ق : انفرد ‖ ٤) س : توفيهم ‖ ٥) ر : – هم ‖ ٦) إ : ابن ‖ ٧) قرآن : ٢٤ : ٥٣ ‖

واقواله . وقال ابو بكر الطستاني : من صحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه الى الله تعالى فهو الصادق والمصيب . وقال ابو القاسم النصراباذي : اصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك البدع والاهواء. وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية اعذار الخلق والمداومة على الاوراد وترك اتباع الرخص والتأويلات . وقال ابو يزيد البسطامي لجليس له : قم بنا حتى ننظر الى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية — وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد . قال فمضينا فلما خرج من بيته دخل المسجد ورمى ببزاته[1] تجاه القبلة فانصرف ابو يزيد ولم يسلم عليه وقال هذا غير مأمون على ادب من آداب النبي عليه السلام[2] فكيف يكون مامونا على ما يدعيه . وقال ابو يزيد ايضا : لقد هممت ان اسأل ربي عز وجل ان يكفيني مؤنة الاكل ومؤنة النساء. ثم قلت كيف يجوز لي ان اسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله صلعم. ولم اسأله . ثم ان الله سبحانه كفاني مؤنة النساء.[3] حتى لا ابالي استقبلتني امرأة او حائط. وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري وكان يخدم الشبلي فقال له : ما الذي رأيت منه . فقال قال عليّ درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بالوف فما على قلبي شغل اعظم منه ثم قال وضيني للصلاة ففعلت فنسيت تخليل اللحية[4] وقد امسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات[5] فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره ادب من آداب الشريعة .

والحكايات[6] عنهم في هذا المعنى مما يكثر[7] وفيما ذكرناه كفاية نفعنا الله ببركاتهم وحشرنا في زمرتهم ولا خالف بنا عن سبيلهم[8] . ويلتحق بهم من سلك مسلكهم او احب طريقتهم من علماء الظاهر ولم يكن له عليهم اعتراض بلسان ولا خاطر[9] والله تعالى اعلم .

فهذا ما حضرني من الكلام في معنى التقليد والبدعة ولم نر احدا من العلماء ذكر فيها حدا ولا ضابطا وانما فهمنا هذا من مقتضيات اشاراتهم[10]

١) ق ر : بصاقة ‖ ٢) ف ق س : صلعم ‖ ٣) إ : — ثم قلت . . . النساء ‖ ٤) ف ق ر س : لحيته ‖ ٥) إ : — ثم مات ‖ ٦) ق : والحكاية ‖ ٧) ق : نكثر ‖ ٨) ف ق ر س : — نفعنا . . . سبيلهم ‖ ٩) س : +فخذوا هذا دستورا تعتمدوا عليه في مواضع الالتباس والاشكال وتفرقوا له بين الصحيح الحال والمحال ‖ ١٠) ف : اشارتهم ؛ ط : لعله « اشاراتهم » بلفظ الجمع ‖

ومفهومات اطلاقاتهم ولعل[١] ما ذكرناه يكون صحيحا والله تعالى الموفق للصواب بمنه وكرمه[٢].

ورأينا ان نختم هذه النبذة بكلام رايناه لامام الايمة الحسن بن ابي الحسن البصري رضي الله عنه نبه فيه على سنن دارسة خالية وسير ينبغي ان يتنافس فيها ذو الهمم العالية . فرأينا ان نجمع به شمل ما ذكرناه ونتمم بـه الغرض الذي قصدناه . قال رحمه الله بعد ان ذكر قوله عز وجل[٣] :« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة[٤] » :

« ان الله تعالى[٥] اختار محمدا صلى الله عليه وسلم على علم وانزل عليه كتابه وجعله رسوله الى خلقه ثم وضعه من الدنيا موضعا لينظر اليه اهل الدنيا فاتاه منها قوتا ثم قال :« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » فرغب عن ذلك اقوام نعم والله فابعدهم الله . النجا النجا . الوحا الوحا . على مَ تعرجون . على مَ تفرحون . قطعوا عنكم حبال الدنيا وغلقوا عنكم ابوابها . كانكم ركب وقوف اذا دعي احدكم اجاب . كان اشتراطها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصبحتم في غيها فوالله ما نعلمه[٦] بقي الا المعاينة . ان الله عز وجل لما بعثه ، قال هذا نبي . هذا خيارى . خذوا في سنته وسبيله . ولم يكن صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الابواب ولم يقم دونه الحجبة ولا يغدى عليه بالجفان ولا يراح بها عليه ولكنـه كان بارزا. من اراد ان يلقى رسول الله صلى الله وسلم لقيه . يجلس بالارض ويضع طعامه على الارض[٧] ويلبس الغليظ. ويركب الحمار . ويردف بعده . ويلحق يده . ويقول من رغب عن سنتي فليس مني . فكثر الراغبون عن سنته التاركون لها . علوج . فسّاق . اكلة الربا[٨] وغلول . قد سفههم ربي ومقتهم . زعموا ان لا بأس عليهم فيما اكلوا وشربوا وزخرفوا . يتأولون قول الله سبحانه :« قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق»[٩] . وانما هي لاولياء الشيطان قد جعلها ملاعب لبطنه وفرجـه .

---

١) س خ : ولعل عند غيري ما هو ابلغ من هذا واكثر تحريرًا والله . . . ‖
٢) ف ق ر س : — بمنه وكرمه ‖ ٣) ف ق ر س : تعالى ‖ ٤) قرآن ٣٣ : ٢١ ‖
٥) ف ق : عز وجل ‖ ٦) ص : نعلم ‖ ٧) ا : — ويضع . . . الأرض ‖ ٨) ف ق : ربا ‖ ٩) قرآن : ٧ : ٣٠ ‖

ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا موافقين لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[1] . قالوا كذلك فعلهم وما فعلوا كذلك قولهم . اذا جنهم الليل فقيام على اقدامهم يفترشون وجوههم . تجرى دموعهم على خدودهم . يرغبون في فكاك رقابهم . واذا عرض لهم شيء من الدنيا او اشرف عليهم منها شيء اخذوا منها بلغتهم ووضعوا الفضل في معادهم فادوا فيه الشكر لربهم واشتروا منه الفضل لانفسهم . واذا زويت عنهم استبشروا وقالوا هذا نظر من الله عز وجل واختيار[2] منه لنا . ان عملوا الحسنة سرتهم ودعوا الله[3] ان يتقبلها . وان عملوا سيئة ساءتهم واستغفروا الله منها . فما زالوا كذلك وعلى ذلك ولا والله ما سلموا من الذنوب ولا وصلوا الى الجنة الا بالمغفرة .

فاصبح اقوام يتمنون الاماني ويركضون فيها . ولقد ادركت اقواما يعملون الحسنات خايفين الا تتقبل منهم . ثم ادركت بعدهم اقواما يعملون السيئات آمنين غير خايفين ان يوخذوا بها . ولقد كان طوايف من هذه الامة يعيش احدهم الخمسين سنة ونحوها ما له ثوب يطويه ولا يجعل بينه وبين الارض شيئا ولا يامر اهله بصنعة طعام يشتهيه . اذا دخل بيته دخل ناحلا ذابلا . لما جاءتهم هذه الدعوة صدقوا بها وافضى يقينها الى قلوبهم . فخشعت لذلك افئدتهم وابدانهم وابصارهم كأنهم قد رأوا ما يوعدون . ولا والله ما كانوا باهل جدل ولا باطل ولا تحلي[4] . جاءهم من الله امر فصدقوا به فنعتهم الله تعالى في كتابه احسن نعت فقال : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا — والهون في كلام العرب اللين والسكينة والوقار وقال : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً[5] . حلماء اتقياء صبراء . ان بغي عليهم لم يبغوا وان جهل عليهم حلموا وصبروا حتى يكون الله هو الذي ياخذ لهم . ويصاحبون بذلك عباد الله . نهارهم ثم ليلهم خير ليل . يبيتون لربهم سجدا وقياما ينتصبون له على اقدامهم ويفترشون له وجوههم . تجرى دموعهم على خدودهم فرقا من ربهم لامر ما سهروا له

---

١) ف ر س : — صلعم ‖ ٢) إ : واختبار ‖ ٣) ف ق ر س : + عز وجل ‖
٤) إ : بخلا ‖ ٥) قرآن : ٢٥ : ٦٤ ‖

ليلهم ولاس ما خشعوا نهارهم. « يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما »[١]. قال: وكل شيء يزول فليس بغرام وانما الغرام اللازم ما دامت السموات والارض صدق القوم والله الذي لا اله الا هو فعملوا ولم يتمنوا الاماني. فاياكم رحمكم الله وهذه الاماني فان الله لم يعط عبدا بها خيرا قط في دنياه ولا اخراه. ان المؤمنين صبر ذلل اتقياء بررة. وقال: والله ما عقل عبد عن ربه فتكبر ولا تعظم. ولا اختال. ولا طلب عبد هذا الخير حتى جهد فيه واجتهد وناصح وصدق لله في السر والعلانية واستقام على ذلك حتى ينزل به الموت. اذ سمع ربه اثنى على قوم « قالوا ربنا الله ثم استقاموا »[٢]. استقاموا والله على معرفته وسارعوا في طاعته «تتنزل عليهم الملايكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون »[٣]. وتركوا الدنيا لاهلها لم يجزعوا من ذلك ولم ينافسوا اهلها في عزها. حلماء علماء حكماء مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة غبراء مظلمة. يجهلهم اهل الارض ويعرفهم اهل السماء».

فهذا ما اردنا ذكره من كلماته النفيسة البديعة وانفاسه الرفيعة التي بلغت الغاية في الحسن واعجزت عبارتها البلغاء اللسن وقضى متأملها منها العجب. وحصل منها على منتهى السول والأرب. وكم له رضي الله عنه من مقامات حميدة في نصر الدين وقهر الملحدين وطرقات سديدة في ارشاد الضالين وتعليم الجاهلين. فجزاه الله على[٤] ذلك خيرا، واعظم له اجرا ووفقنا لاقتفاء آثاره[٥] والاستضاءة بانواره.

[الرسالة الرابعة]

فصل في آداب الآخذين في علم الظاهر وما احدثوا فيه من بدع ومناكر

اعلم ان هذا الفن كثرت فيه البدع في هذا الزمان وعم بسببها الضرر والعدوان. وسبب ذلك فساد نية[٦] طلبته وحملته وجهلهم بفايدته وآفته. فمن فساد نيتهم وقعوا في مهاوى الغرور. ومن جهلهم بامره اعوزتهم من قلوبهم[٧]

١) قرآن ٢٥ : ٦٥ ‖ ٢) قرآن: ٤١: ٣٠ ‖ ٣) قرآن : ٤١: ٣٠ ‖ ٤) ف : من ، ف خ: + كل ‖ ٥) ر س: أثر ؛ س خ : آثاره ‖ ٦) س : – نية ‖ ٧) ر : – من قلوبهم ‖

وجدان النور فصاروا بذلك مثلة عند ذوي البصاير محقوقون[١] بالخزي يوم تبلى السراير . وحسبك دليلا على صحة[٢] ما قلناه ووضوح ما قررناه مشاهدة افعالهم ومعرفة احوالهم . فليس الخبر كالعيان ولا كبيان ذلك بيان .

وجملة الامر ان منهم من اخذ فيه مع خبث طويته وقبح سريرته مغترا بما ظهر من حالته فلا جرم حصل بذلك على جميع مقاصده الذميمة وقويت بذلك صفات نفسه اللئيمة فما زاده ذلك الا شرا وما كانت عاقبة امره الا خسرا وهو يظن ان له عند ربه قدرا .

ومنهم من اخذ فيه بحسن النية بزعمه[٣] محتسبا ثواب ربه في تعلمه وعلمه يرى انه قام بواجب الوقت وانه سلم من دواعي المقت فاغتنم ذلك منه عدوه اللعين واستحوذ عليه بانواع التزوير والتزيين . فذكره ما ورد من فضايل[٤] اهل[٥] العلم ودرجات اهل[٦] الفقه والفهم . ولم يعلم المسكين انه قد انخدع بسرابه ووقع على مراده في رفض ما هو اوجب عليه واولى به .

ومنهم من اقدم عليه بنية سليمة جادا في هربه من هذه الخلال الذميمة واضعا الامور في مواضعها قامعا لدواعي[٧] نفسه ونوازعها . الا انه لم يجد من يعينه على حاله من اضرابه وامثاله فاضطره اعواز المناسب الى مخالطة الاجانب فلم يلبث ان سرت حتما في باطنه بلطيف الاستغراق[٨] وترآت على ظاهره سمات النفاق فجاء الفساد من حيث رجا الصلاح واستبهم عليه سبيل النجاح والفلاح . « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم »[٩] . وقد جاء في الخبر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم انه قال: اكثر منافقي امتي قراؤها. وقال الحسن بن ابي الحسن[١٠] : اكان الرجل اذا طلب العلم لم يلبث ان يرى ذلك في تخشعه ولباسه وبصره ولسانه ويده وصلاته وهديه وزهده وان كان الرجل ليصيب الباب من ابواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا بما فيها لو كانت له فيضعها في الاخرة . قال : ولا يقبل الله من صاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا عتقا ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا

١) ف ط : قيل الجاري محقوقين وهو ظاهر ‖ ٢) ق : حجة ‖ ٣) ف ق س : في زعمه ‖ ٤) ق : انواع ‖ ٥) إ : اهل ‖ ٦) إ : اهل ‖ ٧) ر : لداعي ‖ ٨) ر : الاستراق ‖ ٩) قرآن : ٣٨:٢٣ ‖ ١٠) ق: +البصري

وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحق بالباطل . فاذا كان ذلك لم ينفع فيه الا دعاء كدعاء الغريق . فعليكم بالعلم فان العلم لا يسلم اهله . اشار بذلك رحمه الله الى ما ظهر في زمانه من طلب العلم على غير بصيرة . وقال سفيان الثوري : اياكم وفتنة العالم الفاجر . واياكم وخشوع النفاق . وقال مالك : دخلت على عبد الرحمن بن هرمز وهو مخل وليس[1] عنده احد فذكر شرايع الاسلام وما يخاف من صنيعته وان دموعه لتنسكب . قال مالك : وكان ابن هرمز رجلا كنت احب ان اقتدى به وكان قليل الكلام قليل الفتيا شديد التحفظ وكان بصيرا بالكلام شديدا على اهل الاهواء وكان من[2] اعلم الناس بما اختلف فيه من الامور . فقال مالك : ودخلت على ربيعة فوجدته يبكي. فقلت له[3] اصلحك الله ما لك تبكي فقال يا مالك تكلم في هذا العلم او قال في هذا الدين من ليس بمامون ومن لا[4] ترضى حالته. قال مالك: فكيف لو ادرك ربيعة ما نحن فيه. وقال بعضهم :رايت سفيان الثوري حزينا فسالته عن ذلك فقال:ما صرنا الا متجرا لابناء الدنيا. فقلت وكيف ذلك قال: يلزمنا احدهم حتى اذا عرف بنا وحمل عنا جعل عاملا او حاجبا او قهرمانا او جابيا فيقول : حدثني الثوري.

فان قلت : كيف يكون المتعلم والمعلم سالكين سبيل السنة متبعين لما عليه هذه الامة . فاعلم ان اخذهما فيه اعني تعلم المتعلم وتعليم المعلم ان كان فرض عين عليهما فالسنة في طلب المتعلم اعتماد الاعلم الاتقى للتعلم[5] منه ان وجده . والسنة في تعليم المعلم الرفق بالمتعلم وبسط خلقه له وتفهيمه بابلغ ما يقدر عليه . وان كان غير فرض عين فسنته فيها مع ما تقدم اخلاص النية وان لا يرتكبا معه محظورا ولا مكروها ولا يخلا بادب من اداب الشرع الظاهر[6] . فان واقعا شيئا من ذلك واحتسباه قربة فهما مبتدعان ومذهبهما ذلك بدعة لان ذلك لم يكن من شان السلف . وان كانا معترفين بخطاهما وادين ان ينجوا من ذلك كفافا لا لهما ولا عليهما فليسا مبتدعين بل هما اما عاصيان او تاركان للافضل . مثاله مما[7] يجري في العادة :اما المتعلم فان[8] يتعلم ممن يحب الرياسة والاستتباع فيكثر سواده او يشاهد عليه او في مجلسه منكرا ولا يغيره مثل

١) ف : ليس ‖ ٢) ق : من ‖ ٣) ق ر : له ‖ ٤) ق : ولا من ‖ ٥) إ : للتعلم ، ق : المتعلم ‖ ٦) ق : الظاهرة ‖ ٧) إ : ما ‖ ٨) إ : فان (فيتعلم)

الغيبة والوقيعة والمراء والمجادلة ورفع الصوت ان كان في مسجد او في حال استماع[1] حديث من احاديث النبي صلى الله عليه وسلم او الرد على كلام احد من اهل العلم على وجه التعصب واساءة الادب بنسبته الى الفساد وعدم الصحة وخرق الاجماع وما يجرى هذا المجرى . او يسيء ادبه على المعلم فيعنته في السؤال ويعارضه في المقال او يتكبر على احد من اقرانه وجلسايه او يسيء مجاورتهم في المجلس بقول او فعل او يسيء ظنه بهم الى غير ذلك .

٥

. واما المعلم فان يعلم من يظهر له من مخايله فساد نية او خبث طوية ظهورا بينا . فان اكثر ما يقع من الفساد في هذا الزمان انما هو من عدم مراعاة هذا الامر . وان يجلس على[2] موضع مرتفع على اصحابه من غير غرض صحيح وان يسامحهم في سوء ادب ان صدر من احدهم عليه او على بعضهم بل يغلظ القول تارة ويامر بالخروج من المجلس اخرى على حسب ما يراه في مقتضى الدين وان يخص الاغنياء وابناء الدنيا بادناء مجالسهم منه دون الفقراء والمساكين من غير وصف ديني يقتضي ذلك وان يدخر عنهم نصيحة ان وجد لها محلا وان يخلي مجلسه عن[3] ذكر الله تعالى وتلاوة آية من كتابه وحديث من حديث نبيه صلى الله عليه وسلم وخبر من اخبار الصالحين وصلاة على النبي صلعم[4] وسؤال مغفرة ورحمة واستعاذة اذا وجد لجميع ذلك مفصلا . بل يعتمد ذلك ويقصده ويعتده من اعظم فوايد المجلس . وذلك ادل دليل على يقظة قلبه وطهارة نفسه . بل ان كان له حظ من علم اليقين وحال صالح من احوال العارفين الموقنين فليذكر لهم من نفيس علومه ما تحتمله عقولهم وليريهم من شريف[5] احواله ما تصح به احوالهم وينبههم على كيفية ارتباط الشريعة بالحقيقة ويسالك بهم[6] الى تفهيمهم اسرار ما يتعاطونه اوضح طريقة[7] ويصرفهم بقوله وهمه عن ملاحظة كل محدث وزايل ويحققهم بمعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : اصدق بيت قالته الشعراء :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَى اللهِ بَاطِلُ

١) ر س: استماع س خ : اسماع ‖ ٢) ا : + غير ‖ ٣) س : من ‖ ٤) ا : وخبر . . . صلعم ‖ ٥) ر : شرف ‖ ٦) ا : ويسلكهم ‖ ٧) ا : وصح طريقه ‖

فهذه كانت سير سلفنا الصالحين ووصايا علمائنا الناصحين فمن حذا على مثالهم ونسج على منوالهم فقد حاز قصب السبق في عصره وفاز بقدم الصدق عند ربه في عاقبة امره ومن نكب عن اتباع سنتهم والحاز الى غير فيئتهم فقد باع آخرته بدنياه وتعرض لسخط مولاه ودخل في مقتضى قوله تعالى: «قل هل ننبيكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا».[1]

والعياذ بالله من ذلك.

[الرسالة الخامسة]

كتاب تضمن تطييب قلب صاحب أصابه كرب من اعتراض معترض على كلام صاحبه[2]

الحمد لله وحده. اسلم عليكم كثيرا. وبعد فموجبه اليكم اني اخبرت عن الكرب الذي كان اصابكم من اجل الكلام الواقع من قبل زيد او عمر[3] بسبب ما تضمنه الكتاب الذي كنت كتبته اليكم قبل. وانه بلغ ذلك منكم مبلغا عظيما.

فاعلموا اني لم اقدم على مثل ذلك النمط وبيان الصواب فيه من الغلط الا وقد علمت اني تعرضت لتطويل الالسنة بالكلام واستهدفت لوقوع المطاعن والملام. وليس ذلك بضار لي شيئاً اذا خلصت فيه النية وحصلت به الامنية. ومن قدر انه يسلم من عيب الناس وطعنهم فهو مجنون. ولست اخاف من راد لما فيه لاختصاص ضرر ذلك به وانما اخاف من قابل له باحالته عن وجهه وعدم احاطته بكنهه. وعهدي اني حررت الكلام فيه تحريرا لا مزيد عليه وتحاميت الافصاح بما لا تهتدي العقول اليه. ولقد صدق الشافعي حيث قال في وصيته لبعض اصحابه: لا اقول لك الا حقا انه ليس الى السلامة من الناس سبيل. فانظر الى ما يخلصك فالزمه. وقال بعض الحكماء: داء الانسان[4] بالناس اعظم من دايه بالسباع العادية والافاعي الضارية لان التحفظ من ذلك

---

١) قرآن: ١٨: ١٠٣–١٠٤ ‖ ٢) س خ: وله ايضاً رضي الله عنه كتاب فيه تسلية قلب صاحب اهتم من اجل اعتراض من اعترض على صاحبه ‖ ٣) ر: عمرو ‖ ٤) س: الانس ‖

ممكن ولا يمكن التحفظ من الناس اصلا . ثم ان الله تعالى منّ علينا بسكينة انعشت القلوب والارواح وطمأنينة تجلى بها ضوء الصباح فلم نبال معها بمن برق ورعد ولم نحفل من اجلها بمن قام وقعد بل اتخذنا ذلك سببا للاعتبار وسبيلا للادكار[1] فلربنا الحمد كثيرا كما هو اهله . وقد قال بعض العارفين : من نظر الى الخلق بعينه طالت خصومته معهم ومن نظر اليهم بعين الحق عذرهم .

ثم لنا في الانتظام في سلك من اعترض عليه من اهل الحق ونسب الى الضلال والتزلق وهم خاصة الاولياء من اهل المحن والابتلاء نعمة جزيلة لا يقدر قدرها ولا يوفي شكرها . بيد انهم لم ينقصهم ذلك ذرة من احوالهم المكينة ولم ينقلب الطاعن عليهم الا بالعين السخينة ، وكيف لي بذلك وانى لي وهل يطمع في نيل هذه المرتبة العلية امثالي . « عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الهَوَى وأَخْلُصَ مِنْهُ لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا » — ثم لنا في آفات النفوس التي نكست الرؤوس، ما يشغلنا عن الالتفات الى ما وقع والمبالاة به ضر او نفع .

فهذه اوجه بينة قصدنا ذكرها تطييبا[2] لقلوبكم وحرصا على اراحة خواطركم . وآثرنا ذلك على الاضراب عما تضمنه هذا الكتاب من تعريض بذكر الغير او تلويح بما يقتضي الكتمان والستر . فلا يهولنكم شيء من ذلك ولا تكترثن به .

ثم اني اجدد[3] لكم الوصية التي كنت اوصيتكم بها ومؤكد عليكم في تعهدها والقيام بموجبها . وربنا عز وجل المسئول في التوفيق لما يرتضيه ويزلف[4] لديه والجمع لهمومنا بصدق العبودية بين يديه انه مالك[5] كريم جواد رحيم .

[الرسالة السادسة]

كتاب تضمن الكلام على مسايل مفترقة مكتوبة تراجمها في طرره لكون الكلام فيها مرتبطا بعضه ببعض[6] واولها مسئلة المشي الى الحج وحكمه بالنسبة الى الاشخاص والاحوال

الحمد لله وحده[7] . المشي الى الحج في هذه الازمنة مما يعظم حرص الناس

١) ر س: للاذكار ‖ ٢) ق: نطيبا ‖ ٣) ف ق ر س: مجدد ‖ ٤) ر: ويزلفه ‖ ٥) س: ملك ‖ ٦) إ: لكون . . . ببعض ‖ ٧) إ ف ق ر س: ط: حكم المشي الى الحج ‖

عليه وثقيل نفوسهم اليه . ويؤثرون المشقة والقلة والغربة اللازمة له على الراحة والجدة والاقامة . وقد يترك بعضهم دينه وما هو اهم عليه منه[١] بسبب ذلك . فاذا قضوا صورة ذلك الفعل الذي قصدوه لم تكن لهم حينئذ همة ولا ارادة الا الرجوع الى اوطانهم والاجتماع باهاليهم واخوانهم . فاذا نالوا من ذلك بغيتهم واستطالوا مدة اقامتهم وادركهم الملل والكلل اشتاقوا الى معاودة الحال الاولى وحرصوا عليه اشد من حرصهم اول مرة . وهذا كله مركوز في في جبلاتهم مجبولون عليه .

فيجب على العاقل البصير اذا سنح في خاطره شيء من ذلك ان يعرض عن مقتضى طبعه ويعرض ذلك على[٢] بصيرته ويستفتي فيه قلبه ويعمل على حسب ما يظهر له في مقتضى الدين او يسترشد من فيه اهلية ذلك ولا يتبع هواه من غير بصيرة او مشورة فيكون عمله باطلا ولم ينل بتعبه ونصبه طايلا. ومعرفة احكام ذلك بالنظر الفقهي لا يخفى فلننظر[٣] في ذلك على وجه اعم منه فنقول :

المشي الى الحج على ثلاثة اوجه : مشي محمود مطلقا — ومشي[٤] مذموم مطلقا — ومحمود من وجه مذموم من وجه .

فالمشي المحمود مطلقا مشي عالم موقن سالم من حظ النفس وغلبة الطبع لان باعثه على ذلك مقتضى الدين ونور اليقين وهذه حالة شريفة ومنزلة عالية منيفة لا يعرفها الا من اقيم فيها .

فقد حكي عن بعض العلماء انه قال : بينا انا اطوف بالبيت اذ لقيني رجل كبير السن فسألني عن بلدي فاخبرته فقال لي : كم بينه وبين هذا الموضع . فقلت له نحوا من شهرين فقال لي : يمكنكم ان تحجوا هذا البيت كل سنة . فقلت له : وانت كم بين ارضك وبين هذا الموضع . فقال لي : سيرة خمس سنين . خرجت من بلدي وانا شاب قال : فتعجبت من ذلك فأنشأ يقول:

زُرْ مَنْ هَوِيتَ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ ٱلدَّارُ   أَوْ[٥] حَالَ مِنْ دُونِهِ حُجُبٌ وَأَسْتَارُ
لَا يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ مِنْ زِيَارَتِهِ   إِنَّ ٱلْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ[٦] زَوَّارُ

١) ر : — منه ‖ ٢) ق : + مقتضى ‖ ٣) ر س : فلينظر ‖ ٤) ق ر : مشي ‖
٥) ف ق ر : و ‖ ٦) إ خ : يحب

وحكي[1] ان الشيخ ابا الحسن النخمي كان ذلك يوم جالسا مع اصحابه فتذاكروا حكم الحج في زمانكم وهل وجوبه باق او ساقط وكثر في ذلك كلامهم ومن وراء الناس فقير يستمع اليهم فلما فرغوا من ذلك ادخل ذلك الفقير رأسه في الحلقة وقال مخاطبا للشيخ :

يا سيدي :

إنْ كانَ سَفْـكُ دَمِي أقصَى مُرادِكُم
فَما غَلَتْ نَظرَةٌ مِنكُمْ بِسَفْـكِ دَمِي

والمشي المذموم مطلقا مشي من اتصف باضداد تلك الصفات وكان غرضه من ذلك مجرد الرياء والسمعة لان باعثه على ذلك هو غلبة الهوى فقط . ووجود هاذين القسمين نادر ووجه حكمها ظاهر .

واما المشي المحمود من وجه المذموم من وجه فهو مشي انسان متدين او مترسم بالعلم باق مع حظوظه وشهواته ، جاهل بمكايد العدو وخدع النفس لاشتراك البواعث الحاملة له على المشي وعدم استقلال احدهما . وهذا القسم يحتاج الى بيان وجه ترجيح البواعث فيه بالنظر الى الاشخاص والاحوال .

فلا يخلو هذا الشخص اما ان يكون صرورة او لا . فان كان صرورة فان قلنا ان وجوبه على الفور وتوفرت الشروط وانتفت الموانع فمشيه محمود ومامور به ولا يعارضه شيء البتة الا ما قيل من مراعاة حق الاباء والابناء والغرماء على تفصيل الفقهاء في ذلك . وان قلنا انه على التراخي الى حين خوف الفوات او انتفى شرط او وجد مانع فان كان من عامة الناس اعني من اهل مقام الاسلام وليس فيه قابلية لغير المعاملة بالظاهر وكان في حال اقامته بصدد طاعات وخيرات يعملها سواء كانت قاصرة عليه او متعدية الى غيره لتمكنه من اوراد ونوافل ولقيامه بمنافع متعدية الى غيره[2] من تعلم علم او تعلمه او ادخال رفق على مسلم فان توقع في سفره تضييع فرض او ارتكاب نهي هو سالم منه في موضعه فمشيه مذموم من قبل قوة ميل نفسه وهو في غاية الذم من مثله ولفوات تلك المقاصد الدينية التي هو عليها . وان علم من نفسه المحافظة

١) ر : ويحكى || ٢) س خ : منهم || ٣) إ : — لتمكنه . . . الى غيره ||

على الفرايض واجتناب النواهي في طريقه بظن غالب فيحتمل ان يترجح ذم مشيه لقوة ميله وفوات مقاصده الدينية المذكورة واذ ليس على يقين من سلامته. ويحتمل ان يترجح حمد مشيه لانه يسعى في اداء فرضه على وجه المبادرة والخروج عن شبهة الخلاف لا سيا ان كان له قوة في بدن او سعة في مال او سعة في مال او[1] وجد طريقاً سابلة. وعليه حينئذٍ المحافظة على فرايضه واجتناب ما يتعرض له من المعاصي في طريقه. فان لم يكن في حال اقامته بصدد ما ذكر فالامر فيه ابين.

وان كان من الخاصة او ممن فيه قابلية لسلوك مسالكهم كاخذه في مجاهدة نفس وتصفية قلب ومراعاة خاطر وتصحيح هم واستغراق في فكر او ذكر الى غير ذلك من احوالهم الرفيعة ومقاماتهم الشريفة فان كان له منها اصول راسخة بحيث توجب طهارة باطنه من كباير معاصي القلوب الواجب ازالتها عليه كالكبر والعجب والحسد والحقد والرياء والنفاق والمداهنة في الدين وسوء الظن بالمسلمين وقوة محبة الدنيا وبعض انواع الغرور فمشيه راجح على الوجه الذي ذكرناه آنفاً وعليه حينئذ الاجتهاد في تحصيل فروعها ما امكنه. وان لم يكن له منها اصل[2] البتة او كانت بحيث لا توجب[3] ما ذكرناه من التزكية والتطهير فان كان ضعيفا في بدنه او ذات يده فمشيه مذموم من قبل تفويته لاصول تلك الاحوال المذكورة فضلًا عن فروعها اذ هي اولى من تقديم الحج. ومن قبل قوة ميل نفسه وان كان له مزيد قوة بدنية او سعة مالية تحمل عنه الكلال والتعب وتبلغه من مراده الى غاية الارب. فان كانت محبته للمشي قوية بحيث لو قدرنا سقوط فرض الحج عنه وتحصيله ثوابه في حال قعوده بطريق قطعي كانت قوة محبة مشيه باقية فقعوده ارجح لوجود قوة الميل وتوقع فوات تلك الفوايد التي هو بصددها في حال الاقامة لانه على غير يقين من تحصيلها في المشي لا سيا مع عدم السبيل الآمنة. وان كانت محبته ضعيفة لا باعث عليها الا اداء الفرض بحيث لو قدرنا سقوطه عنه بطريق قطعي عدم الميل والمحبة بالكلية فمشيه اذ ذاك محمود لضعف محبته وقوة رجايه بلوغ امله بصحة بدنه او

١) س : و ‖ ٢) س: شيء ‖ ٣) ف ق ر : يوجب . كذا ‖

سعة ماله لا سيا ان صحبه في طريقه اخوان صالحون ورفقاء موافقون ووجد طريقا سابلة . هذا كله ان كان صرورة .

فان لم يكن صرورة فان كان من العامة فان كان[١] بصدد ما ذكرناه[٢] من الخيرات والطاعات فذم مشيه راجح من قبل ميل نفسه ومن قبل تعرضه لفوات تلك المقاصد المحققة وكونه على غير يقين من تمام ما رامه وسلامته من الخطر الذي يتصدى له . وان لم يكن في حال اقامته بصدد ما ذكرناه فيحتمل ان يترجح ذم مشيه من جهة قوة ميل نفسه وتعرضه بسفره لتضييع فريضة او وقوع في معصية — ويحتمل ان يترجح حمده لارادته ايقاع عبادة من جنس عباداته مع ان ميل مثله[٣] لا يعتبر ولان[٤] وجدان سلامته من الآفات المذكورة ممكن في حقه . اما اذا غلب على ظنه عدم السلامة منها ترجح الذم على كل حال اذ لا يعدل بالسلامة شيء .

وان كان من الخاصة فمشيه مذموم لفوات ما هو بصدده من سني الاحوال وما يتبع ذلك من افعال واقوال لان ذلك يستدعي فراغ قلب واجتماع همة وصفاء محل وذلك معدوم في مثل هذه الاسفار الطويلة قطعا او ظنا . وانما رجحنا ما ذكرناه على التنقل بالحج لكون ذلك ملاكا[٥] لامره وتصحيحا لاعمال بره من قبل انه سالك سبيل التوحيد والاخلاص الرافعين له في مقامات اهل الاختصاص . ومثل هذه الاعمال القلبية لا يوازيها شيء من نوافل العبادات ولا ينجبر فواتها بشيء من الطاعات ، ويترجح ذم مشيه ايضاً لكونه غير مخلص فيه . وعلامة عدم اخلاصه وجود ميله اليه مع بقاء حظوظ نفسه واغراضه . فمحبتها اذ ذاك نيل حظوظها بواسطة ما يفعله من الطاعات في مشيه كلقاء العلماء والصلحاء واستفادة العلوم منهم والتماسه بركة دعايهم وخدمته لرفقايه واصدقايه واحتسابه ثواب نصبه وعنايه ورؤيته[٦] الامصار والقفار بعين التفكر والاعتبار الى غير ذلك من مناسك حجه ووظايف عمجه ونجه . وغرضها من ذلك ما اخفته من نيل شهوة التفرج[٧] برؤية البلاد والتحدث بلقاء العلماء والعباد والتخلص من كروب الوطن المعتادة واستراحته من تعب الافادة والاستفادة

١) ف : وكان ‖ ٢) س : ذكرنا ‖ ٣) ف : نفسه ‖ ٤) إر : وان ‖
٥) إ : مالكا ‖ ٦) ر ف خ : ورؤية ‖ ٧) إ : والتفرج ‖

الى غير ذلك من اغراضها وخفايا حظوظها . وعلامة اغتراره في ذلك انه قد يتمكن من كثير من تلكم[1] الطاعات او مما هو اعظم منها في موضعه ثم لا يلتفى لها بالا ولا يجد عليها اقبالا . وهذه هي حال السايل الذي سأل بشر الحافي عند مشيه للحج . فقد روى ابو نصر التمار ان رجلًا جاء يودع بشر[2] بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتامرني بشيء . فقال له بشر : كم اعددت للنفقة قال : الفي درهم . قال بشر : فاي شيء تبتغي بحجك نزهة او اشتياق[3] الى البيت او ابتغاء مرضاة الله قال : ابتغاء مرضاة الله . قال : فان اصبت رضى الله تعالى وانت في منزلك وتنفق الفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تفعل ذلك قال: نعم . قال: اذهب فاعطها عشرة انفس: مديان يقضي[4] دينه وفقير يرم[5] شعثه ومعيل يحيي عياله ومربي يتيم يفرحه . وان قوي قلبك ان تعطها الواحد فافعل فان ادخالك السرور على قلب امرء مسلم وتغيث لهفان وتكشف ضر محتاج وتعين رجلا ضعيف اليقين افضل من ماية حجة بعد حجة الاسلام . ثم فاخرجها كما امرناك وإلّا قل لنا ما في قلبك . فقال : يا ابا نصر سفري اقوى في قلبي . فتبسم بشر واقبل عليه فقال له : المال اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس ان تقضي به وطرا تسرع اليه بظاهر اعمال الصالحات وقد آل الله تعالى[6] على نفسه الا يقبل الا عمل المتقين . قال فبكى الرجل .

فان كان هذا الشخص مستقيما على هذه الاحوال التي ذكرناها[7] في حال اقامته مستوفيا لاحكامها واراد تجربة نفسه في الوفاء بها في حال الغربة وفقد المالوفات التي اعتادها في وطنه وعزم على مجاهدة نفسه في ذلك فان مشيه في ذلك محمود ولا يختص ذلك بسفر الحج بل له ان ينشي سفرا لاجل هذا الغرض ولم يزل ذلك من عادات السالكين واهل التجريد وانما حكمنا على ميل النفس الى المشي بالذم في اغلب الاحوال طردا لقاعدة ان ميل النفس الى العبادات الشاقة على البدن مذموم .

١) س خ : تلك ‖ ٢) ر : – بشر . . . بشر ‖ ٣) ف ر : اشتياقا ؛ ف خ : اشتياق ‖ ٤) ف ق ر : تقضي ‖ ٥) ر : ترم ‖ ٦) ف ق ر : تعالى ‖ ٧) ف ق ر : وصفناها ‖

وقد[1] يتعجب من هذا من يسمعه[2] فيقول : كيف تميل النفس الى ما فيه المشقة وهي منافية لحظها – ولم يدر انها انما تطلب حظوظاً[3] لا تتوصل اليها الا بترك حظها من الراحة كمن استولى عليه حب الجاه والمال وقضاء الاوطار منها والامال فتراه يرتكب الاخطار ويجوب القفار ويخوض البحار ويتعرض لانواع المضار قد حمله تأميل حصول اغراضه على استحلاء هذه الشدايد وقد لا ينال ما امله من تلك الفوايد . ولا فرق بين المسئلتين الا ان هذه اغراض معروفة لعامة الناس وسبلها واضحة لا اشكال فيها ولا التباس . وما ذكرناه يختص به اهل الدين ومن ارتفعت احواله[4] عن احوال عامة المسلمين . بل من جهل النفس وشدة غباوتها انها تفعل الافعال الشاقة لغرض تافه كالذي يعرض نفسه لمعارك الحرب ومباشرة الطعن والضرب ليثني عليه بالشجاعة والجلادة بعد موته . وهذا جهل عظيم واي منفعة للنفس في ذلك بعد الموت.

وقد تفعل ذلك من غير تصور غرض ولا تحصيل عوض[5] كما قال[6] علي بن حزم في كتاب السياسة . واحمق من هولاء قوم شاهدناهم لا يدرون في ما يبذلون انفسهم فتارة يقاتلون زيدا عن عمر وتارة يقاتلون عمرا عن زيد لعل ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون للمهالك بلا معنى فيقتلون الى النار ويفرون[7] الى العار . وقد انذر بهؤلاء رسول الله صلى عليه وسلم في قوله : يأتي على الناس زمان لا يدرى القاتل فيمَ قتل ولا المقتول فيمَ قُتل . ومثال مسئلتنا ما يعتري بعض الناس من ميل نفوسهم الى التعمق في العبادات والايغال في فنون المجاهدات والقاء النفس في المهلكات وفرضها بذلك استعجال احوال اتصف بها الاكابر والرؤية لكمالها بنظرها القاصر استبدالا منها هذه الاغراض بما تركته من اغراضها الدنياوية واستظهارا لصدق قصدها في زعمه بتعاطي الوظايف الدينية • فلم تلبث الا يسيرا حتى سيمت الاعمال والاوراد وطالت عليها الآماد فنكصت على عقبها ورجعت القهقرى الى اقبح من مرادها واربها. ولو كانت صادقة في قصدها لاتت الامر من باب مخالفتها بالكلية ولعلمت ان

---

١) إ ف‌ق‌د‌س: ط : جواب السؤال الثاني في كيفية ميل النفس الى ما فيه المشقة ‖ ٢) إ : — من يسمعه ‖ ٣) إ س : حظوظها ‖ ٤) ف ق س خ : حاله ‖ ٥) إ : غرض ‖ ٦) س خ : حكى ‖ ٧) ف ق : او يفرون ‖

ذلك لا يتأتى لها الا باتباع الملة الحنيفية . فلعمري لمن اخذ نفسه باتباعها في هذا الزمان والجري على اسلوبها العجيب الشأن ليكابدن من الشدة[1] ما لم يخطر له قط ببال وليتجرعن من الغصص ما يعجز عن تجرعه آحاد الرجال . وبحسب ذلك يكون اجره موفورا وسعيه مشكورا . وذلك لصحة قاعدة ان كل ما يثقل على النفس خير محض .

وبيانه[2] ان الحق تعالى اوجب على عباده اقامة عبوديته واخبرنا انه انما خلقهم لاجلها فقال تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »[3] وهذه الصفة من أجلّ ما وصف[4] به انبياءه ورسله من الصفات العظام وسماهم به من الاسامي الكرام . وخصوصاً نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام[5] . فلقد حاز من[6] ذلك غاية الامكان وتبوأ من درجاتها اعلى مكان وبرز بها على العالمين في يوم الدين — وكان[7] تحت لوايه كافة النبيين[8] والمرسلين . ومن اوجز ما قيل فيها وابلغه قول بعضهم : العبودية مشاهدة الربوبية . وهذه عبارة جامعة لمعاني العبودية على مذهب هذه الطايفة وهي اشارة الى مقام الاحسان المذكور في حديث جبريل عليه السلام . وقيل : العبودية ان تكون عبده بكل حال كما انه ربك بكل حال ، وقيل : العبودية في اربع[9] خصال : الوفاء بالعهود والحفظ للحدود والرضى بالموجود والصبر عن المفقود . وقيل غير هذا — وحاصل اشاراتهم ان العبودية صفة قايمة بالعبد تحمله على امتثال الاوامر واجتناب النواهي والرضى بالاقدار . ولها اول في مقام الاسلام وآخر في مقام الاحسان . ولا صارف للعبد عن اقامتها[10] في مقاماتها الا النفس الامارة ولا سبيل الى استسلامها لاحكام الربوبية الا بمجاهدتها على طريقة هذه الطايفة المختارة . قال الله عز وجل[11] : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[12] . وقال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى »[13] . وفي الخبر : اعدى عدوك[14]

---

١) ف ق ر س : الشدايد ‖ ٢) إ ف ق ر س : ط : جواب السؤال الثالث في وجه خيرية الشاق على النفس ‖ ٣) قرآن : ٥١ : ٥٦ ‖ ٤) ق : + الله ‖ ٥) ر : صلعم ‖ ٦) ر: في ‖ ٧) إ: كان ‖ ٨) إ : المسلمين ‖ ٩) إ : اربعة ‖ ١٠) ف : اقاماتها ، كذا ‖ ١١) ر: — عز وجل ‖ ١٢) قرآن ٢٩: ٦٩ ‖ ١٣) ٧٩ : ٤٠–٤١ ١٤) ق : عدو لك ‖

نفسك الى بين جنبيك . واوحى الله تعالى الى داوود عليه السلام : عاد نفسك فليس لي في المملكة منازع غيرها . وقال الجنيد . ارقت ليلة فقمت الى وردى فلم اجد ما كنت اجد[1] من الحلاوة فاردت ان انام فلم اقدر عليه فقعدت فلم اطق القعود ففتحت الباب وخرجت فاذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق فلما احس بي رفع رأسه وقال يا ابا القاسم الى الساعة فقلت يا سيدي من غير موعد . فقال بلى[2] سألت محرك القلوب ان يحرك لي قلبك . فقلت قد[3] فعل فما حاجتك . فقال : متى يصير داء النفس دواءها . فقلت اذا خالفت النفس هولها صار داؤها دواءها . فاقبل على نفسي وقال اسمعي قد جاوبتك[4] بهذا الجواب سبع مرات فابيت الا ان تسمعيه من الجنيد فقد سمعت. وانصرف عني ولم اعرفه . فتأمل هذه الحكاية ترى فيها العجب . والحكايات عنهم في هذا المعنى اكثر من ان تحصى . وفوايد هذه المجاهدات والرياضات حاصلة في البلايا التي يبتلي الحق تعالى بها بعض عباده لمنافاتها لارادتهم[5] وتنغيصها لشهواتهم[6] فيستفيدون باحتمال ذلك والصبر عليه مذلة وافتقارا وتواضعا وانكسارا وهي من اخلاق العبيد المطلوبة منهم . واهل البلايا هم الامثل فالامثل بالانبيا وقيل في معنى قوله تعالى « فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل »[7] انهم اهل الشدايد والبلاء مثل ايوب عليه السلام . قرضوا بالمقاريض ونشروا بالمناشير وكانوا سبعين نبياً — فلهذه المعاني كان كل بلاء نعمة كما ان كل ما يثقل على النفس خير :

فان قلت[8] : ينبغي[9] على هذا آن يكون وجود كل ما يخف على النفس من الاعمال او يصيبها من النعم والرخاء شرا وبلاء. وان يستحسن سؤال الثقل والبلاء وتمنيها لكونها خيرا ونعمة او يجوز ذلك — قلت :

اما السؤال الاول فلا يلزم لاننا نجد انواعا من اعمال البر الخفيفة على النفوس محمودة وضروبا من النعم المستلذة لها خيرا محضاً لا شر فيها كالخفة التي

١) إ : — اجد ‖ ٢) إ : بل ‖ ٣) ر : فقد ‖ ٤) ف ق ر س : اجبتك ‖
٥) س خ : الارادات ‖ ٦) س خ : الشهوات ‖ ٧) قرآن : ٤٦ : ٣٤ ‖
٨) إ ف ق د س : ط : جواب سؤال رابع في بيان امور خفيفة محمودة ‖
٩) ق ر : فينبغي ‖

يجدها بعض الناس في العمل عند فراغه من الاشغال الدنياوية وزوال بعض العلايق القلبية وعند شكر كل[1] نعمة طال ما كان يؤملها من نفع او دفع فانعم عليه بها . وعند اغاثة لهفان واطعام جوعان[2] واكساء عريان وسقي عطشان وتفريج يتيم وقضاء دين غريم وما اشبه هذا من انواع الاعمال الخفيفة المحمودة . وكذلك خفة النعم المسداة الى العبد[3] والفرح بها من حيث كونها وسيلة الى طاعة الله وعبادته كنعمة المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب والمنكح . بل تقول : الفرح بالمنعم من حيث كونها ملايمة لطبعه لا من حيث توصله بها الى اغراضه المذمومة محمود[4] على ما ياتي بيانه .

واما[5] السؤال الثاني وهو استحسان سؤال[6] البلاء وتمنيه او جوازهما فانه[7] يصح ذلك لو لم يرد فيه نهي فلما ورد فيه النهي وجب الا يجوز . فقد روى في الصحيح من حديث ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تمنوا لقاء العدو واذا لقيتموهم[8] فاصبروا — وفيه من حديث عبدالله بن ابي اوفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ايها الناس لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم[8] فاصبروا[9] واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف — وفي الصحيح ايضاً من حديث انس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خفت حتى صار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كنت تدعوا بشيء او تسأله اياه قال : نعم كنت اقول : اللهم ما كنت معاقبي[10] به في الاخرة فعجله لي في الدنيا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه افلا قلت اللهم إتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قال فدعا الله له فشفاه . وفي بعض روايات هذا الحديث : لا طاقة لنا بعذاب الله . ولم يزل من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء باسباغ النعم والمعافاة من النقم[11] . فقد روي في الصحيح ان اكثر دعوة كان يدعو

١) ف ق ر س : — كل ‖ ٢) ر : جيعان ‖ ٣) س: المستلذة للعبد ‖ ٤) ر : محمودة ‖ ٥) إ ف ق ر س: ط : جواب سؤال خامس في وجه المنع من سؤال المشاق وتمنيها ‖ ٦) س : — سؤال ‖ ٧) إ : فانما ‖ ٨) س : لقيتموه : خ : لقيتموهم ‖ ٩) ق: — وفيه . . . فاصبروا ‖ ١٠) س خ: تعاقبني ‖ ١١) س: — والمعافاة من النقم ‖

بها رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار — وفيه ايضا من حديث ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من سوء القضاء. ومن درك الشقاء. ومن شماتة الاعداء. ومن جهد البلاء. الى غير ذلك من ادعيته واستعاذاته صلى الله عليه وسلم — وقد قال صلى الله عليه وسلم في بعض المواطن التي ناله المشركون فيها بالاذى: ولكن عافيتك هي اوسع لي .

والحكمة في ذلك ان البلايا غير مرادة لذاتها بل لما فيها من الفوايد التي ذكرناها ومن تضعيف الثواب الموعود به الصابرون عليها . وجميع ذلك قد يعطيه الحق تعالى واضعافه لمن شاء من غير نزول بلاء. او تحمل[1] عناء. كما ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : لله اضن بعبده من احدكم بكريمة ما له حتى يقبضه[2] على فراشه . وفي الخبر ايضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان لله عبادا يضن بهم عن الامراض والاسقام في الدنيا . يحييهم في عافية ويميتهم في عافية ويدخلهم الجنة في عافية . فالواجب على العبد ان يسأل مولاه الفضل المطلق لا من حيث البلاء والمشقة . وايضاً من الآداب اللازمة للعبد ان لا يسأل مولاه ولا يتمنى عليه شيئا من المشاق لانه يحتاج في ذلك الى فضل قوة وعزيمة صبر وقد خلق ضعيفا لا يقدر على مقاومة ذرة او بعوضة لو سلطت عليه الا بتأييد من الله وعون فيقع من سؤال ذلك وتمنيه في عظيم من الدعوى فيخاف اذ ذاك ان يرد الى نفسه ويوكل اليها فيهلك حسبا وقع لبعض الناس — وقد كان الشافعي رحمه الله اعتل علة شديدة فكان يقول : اللهم ان كان في هذا رضاك فزدني منه . فكتب اليه المعافري من سواد مصر : يا ابا عبدالله لست وايانا من اهل البلايا[3] فنسأل الرضى . الاولى بنا ان نسأل الرفق والعافية . فرجع الشافعي عن قوله وقال : استغفر الله واتوب اليه . فكان بعد ذلك يقول : اللهم اجعل خيرتي فيما احبّ .

وما ورد عنهم من مثل قوله :

أُرِيدُكَ لا[4] أُرِيدُكَ لِلثَّوَابِ وَلٰكِنِّي أُرِيدُكَ لِلعِقَابِ

---

١) ر : وتحمّل ‖ ٢) ر : وُيقبضه ‖ ٣) ف ق ر : البلاء ‖ ٤) ا : + اني ‖

وَكُلُّ مَآرِبِي قَدْ نِلْتُ مِنهَا   سِوَى مَلْذُوذِ وَجدِي بِالعَذَابِ

وقول سمنون :

وَلَيسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ   فَكَيفَ مَاشِئتَ فَاختَبِرْنِي

وقول معاذ بن جبل عند الموت : اخنقني خنقك فوعزتك انك لتعلم ان قلبي يحبك — فذلك كله من غلبات الحال ولستيلاء سلطان الوجد عليهم . ومثل هذا قد يغلب على المحبين في مقام المحبة كما يغلب عليهم البسط والاذلال فينطقون باشياء منكرة في الظاهر . وقد ينتهي بعضها الى ما يشبه الكفر . وهم في جميع ذلك معذورون وفي مقاماتهم العالية محفوظون . وقد قال الشبلي : المحب اذا سكت هلك والعارف ان[1] لم يسكت هلك. وحكي ان سمنون لما انشد البيت المتقدم قال بعض اصحابه لبعض : سمعت البارحة وكنت بالرستاق[2] صوت استاذنا سمنون بن حمزة يدعو الله تعالى ويتضرع اليه ويسأله الشفاء . وقال آخر : وانا ايضاً كنت اسمعت[3] هذا البارحة وكنت بالموضع الفلاني . فقال ثالث ورابع مثل هذا . فاخبر سمنون وكان قد امتحن بعلة الاسر وكان يصبر ولا يجزع . فلما سمعهم يقولون هذا ولم يكن هو قد دعا ولا نطق بشيء. من ذلك علم ان المقصود منه اظهار الجزع تأدبا بالعبودية وسترا لحاله فاخذ يطوف على المكاتب ويقول ادعوا لعمكم الكذاب . وسمنون هذا من المحبين وله في مقام المحبة اعاجيب . فالواجب على العبد سؤال العافية وتمنيها والرضى بها وذلك باب من ابواب الادب . فاذا ابتلي فالواجب حينئذ الصبر والاستسلام والرضى بجريان الاحكام والعلم بانه سلك به سبيل المصطفين من الانام .

فتبين بما ذكرناه ان العبودية التي اشرنا اليها لا تتم الا بانواع من المجاهدات والمكابدات ومرجع جميعها الى معاملات بدنية وقلبية . فان وجد المريد شيخا مرشدا يهديه الى مسالكها ويحميه عن مهالكها ذا طريقة سنية وهمة علية فليتعلق باذياله ولينسج على منواله وليقتد به في اقواله وافعاله وليتحقق انه حصل[4] على الكبريت الاحمر ونال من السعادة الابدية الحظ الاوفر .

١) ر : اذا ‖ ٢) [كذا وهي « بالرسداق »] ؟ : بالرنسان ‖ ٣) ف ق : اسمع ؛ إخ س : سمعت ‖ ٤) ر : وقع ‖

وان[1] اعوزه وجدانه وتعذر امكانه فليعمد كتب ائمة القوم ككتب المحاسبي والسلمي والقشيري وكتاب ابي طالب المكي وكتاب ابي حامد الغزالي وعوارف المعارف للسهروردي . فهذه امهات كتبهم التي تداولها الناس واقتبست منها علومهم ومعارفهم اى اقتباس . وكذلك ما تفرق من كلام ائمتهم في الكتب والدواوين وشهر نقله بين علماء المسلمين . وذلك بعد تصحيح اعتقاده على المذهب السني واعتماده في تقليده في فروع دينه على امام مرضي . وليقدم الاستخارة على سنتها وصدق النية والعزيمة على العمل بما يفتح عليه منها ثم تحقيق ذلك في الافعال والاقوال والاستعانة بربه في جميع الاحوال .

د

فاذا اتصف بهذه الصفات واقبل على النظر في هذه المصنفات رجونا له بلوغ المطلوب وادراك المرغوب .

ولم نرَ في هذه الكتب المذكورة والمصنفات المشهورة ما هو اشفى للغليل وابرأ للعليل واهدى للسبيل من كتابي الامامين ابي طالب المكي وابي حامد الغزالي . فقد اودعا فيها من غرايب العلوم وعجايب الفهوم ما تثلج به الصدور وتتيسر به الامور . وخصوصاً الغزالي فانه فصل وبوب واوضح وقرب ونقح وهذب وجمع في اوراق يسيرة ما تفرق في كتب كثيرة . وضرب الامثال وازاح الاشكال واظهر غوامض الاسرار ونبه على طرق الاعتبار والاستبصار — الا ان فيه اشياء اعتاصت على[2] الافهام وخرجت عن مذاهب اهل علم الكلام ولكن لا حاجة بالمريد الى معرفتها ولا ينبني شيء من احكام طريقته عليها . واكثر ذلك في ربع المنجيات ككتاب التوبة وكتاب الشكر وكتاب التوحيد وكتاب المحبة وقد يوجد منها شيء يسير في غير هذا الربع . فيجب على الناظر في كتابه اذا وقف على بعض هذه المواضع ان يتجاوزها الى غيرها وان يسلم له ما خفي عليه من امرها . وكذلك يسلم له بعض الاحاديث التي ينقلها ولا يردها ولا يقبلها فبذلك يجمع بين تحصيل فوايد الكتاب وتحسين الادب مع العلماء من اولي الالباب .

◆

١) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال سادس فيما يقرأ من كتب التصوف وكيفية الاخذ في ذلك ‖ ٢) ر : عن ‖

واما كتاب ابي طالب فعليه وقف[١] الاختيار واليه انتهى التقديم والايثار اذ لم يقع بايدينا مثل مترعه ولا رأينا من حام حول مشرعه[٢] . فانه فتح فيه مغلق علم التصوف الذي اعجز حله وفك خواتم اسرار لا يفكها الا مثله وجمع فيه بين المعاني الصحيحة والالفاظ الحسنة وساقه مساقاً تصغى اليه الاسماع وتستحليه الالسنة .وذكر فروع علومهم واصولها ورسم مسايلها وفصولها .فكان لذلك كالمدوّنة في علم الفقه يقوم مقام غيره ولا يقوم غيره مقامه — الا ان فيه بعض علوم غامضة لا تدرك ببضاعة العقول ولا توافق ظاهر العلم المنقول . واحاديث له فيها مذهب معروف وطريق مالوف فعلى الناظر في ذلك ان يتصف بما ذكرناه من التسليم ويعتقد جريانها على المنهج القويم ويرجو ان يفتحها عليه الفتاح العليم — وما عدا هذين الكتابين من التصانيف التي ذكرناها مشتمل على فوايد زايدة لا يستغني المريد عنها ولا يجد في غيره عوضا منها. فعليه ان يطلبها من اماكنها ويستخرجها من مكامنها ويستعين على ذلك بمشاركة من يتمذهب بمذهبه ويساهمه في مطلبه[٣] ومآربه .

وليجتنب[٤] المريد مخالطة طايفتين من الناس والتشاغل باشغالهم والعمل باعمالهم . احداهما المستغرقون في علم الظاهر كالفقه وما اشبهه من العلوم الظاهرة لعدم وجدان السلامة في ذلك غالباً ووقوعه في انواع[٥] المعاصي الظاهرة والباطنة. وان سلم من ذلك نادرا فلا يسلم من تشتت قلبه وغفلته بسبب استعماله في تفهم نوادر الاحكام وما ليس له به[٦] حاجة من مسايل التداعي والخصام . فيقطع عمره في التعب والفضول ويستغرق اوقاته بما ليس له طايل ولا محصول. فتنحل بذلك عقدة عزمه وتزول بركة عمله وعلمه . اذ من احسن حال[٧] الآخذين فيه في هذه الازمنة — ولا حال لهم — حال رجل دخل فيه بنية تعليمه من يحتاج اليه وفتواه في نازلة يعول فيها عليه محتجا على ذلك[٨] بحجج داحضة كقوله انا آخذ في فرض الكفاية وما انفي به عني الجهالة والغواية وقد استمر عليه

١) ر س : وقع ؛ س خ : وقف ‖ ٢) إ : شرعة ‖ ٣) ق : مذهبه ‖ ٤) إ ف ق و س : ط : جواب سابع في اجتناب المريد الاخذ في التصوف مع من يستغير به في حاله ‖ ٥) ر س : + من ‖ ٦) ر س : ليس به اليه ‖ ٧) س خ : احوال ‖ ٨) ر س خ : في ذلك ‖

عمل الناس قديمًا وحديثًا واوسعوه اجتهادا وطلبا حثيثا كما فعله مالك وغيره من العلماء. وانا في ذلك سالك سبلهم وعامل عملهم وهل انا في ذلك الا بمنزلة من سعى في انقاذ فريق وهداية[1] ضال الى سواء الطريق الى غير ذلك[2] وهذه حجج صلحايهم التي بها يتمسكون ومحاج نصحايهم التي عليها يسلكون ويسلكون. وهي من تلقين الشيطان وإلقايه ليتمكّن بذلك من فتنته وإغوايه — ومن اعظم ما قاده اليه بكلماته المزخرفة وادلته المحرفة ان انساه نفسه ومولاه والقى زمامه بيد هواه فاصمه بذلك واعماه وفقد الخوف والخشية واستحوذت عليه الغفلة والقسوة فلم يقر له ذلك متواحاً من الخبايث وصار في عداد[3] السفلة والاخابث. وعلى قدر استغراقه فيه تتضاعف عليه هذه الآفات ويتعذر عليه الخلاص منها والافلات. وكل ما ازداد على العلم الذي هو فيه حرصا ازداد[4] عماية ونقصا فكان مثله[5] كمن بنى قصرا وهدم مصرا. وآية ذلك تحسينه ظنّه بنفسه وعجبه بعقله وحدسه وتكبره على ابناء جنسه وعدم قبوله للنصائح والمواعظ وتلقي ذلك ممن يلقيه اليه باذن غير واعية وقلب غير حافظ ومعاداة اقرانه ونظرايه في العلم ووقوعه من غيبتهم بغيبتهم وبهتهم بحضرتهم في كباير الاثم. ومن مارس احوالهم وشاهد اعمالهم علم يقينا صحة ما ذكرناه عنهم. فاين هذا من سيرة السلف الصالح ومواخاة بعضهم بعضاً[6] وتانس بعضهم ببعض[7] وانبساط بعضهم الى بعض.

فان تفطن هذا المسكين لغفلته واغتراره ورأى قبح افعاله وآثاره ورام التوبة والاقلاع والانصاف بالاوصاف الرفاع وجد تلك البلايا في طباعه راسخة وظلماتها لانوار بصيرته ناسخة. فان كان ممن سبقت له العناية وهدي الى طريق الرعاية رأى في مجاهدة هواه اهوالا لا تطاق ولقي في مكابدة قلع صفاته الذميمة احوالا يضيق عنها النطاق. وان كان ممن نفذ عليه الحكم واضله الله على علم قوي عماه وبقي على هواه فخسر دينه ودنياه. والعياذ بالله من ذلك.

فيجب على من انقدحت في قلبه تلك الشبهات التي قبلها من اعدى العداة

---

١) س : او هدايته ‖ ٢) إ : — الى غير ذلك ‖ ٣) ر : عدد ‖ ٤) س : زاد ‖ ٥) ف ق ر س : كمثل من ‖ ٦) ر س : لبعض ‖ ٧) ق : لبعض ‖

ان ينظر احواله مع احوال من ذكره[١] من الائمة بعين الانصاف السالم من الزيغ والانحراف فيظهر له افتراقها وبونها ويقول حينئذ شتان ما بينهما . وذلك انهم بنوا امورهم على قاعدة التقوى والبر واخلاص السر والجهر فاوجب لهم ذلك نفوذا في بصايرهم وصفاء في سرايرهم . وادركوا[٢] بها الحقايق الباطنة والظاهرة وعلوم الدنيا وعلوم[٣] الآخرة وساعدهم على ذلك الزمان والاخوان ووجدوا الرفقاء والاعوان فاستقام لهم بذلك من امرهم ما لم يستتم لمن بعدهم. وهذا كله معلوم من احوالهم بالقطع لتواتر الاخبار عنهم بذلك .

والطائفة الاخرى الشاطحون المترخصون الذين لا يتقيدون بحكم ولا ينضبطون لرسم. فليجتنبهم المريد كما يجتنب المتفقهة[٤] بل اشد[٥] وذلك لان ضررهم اعظم من قبل ان احوالهم موافقة لهوى النفس لانهم جمعوا بين دعوى المقامات العلية والراحات من الاعمال البدنية . وذلك خلاف لمذهب[٦] اهل التحقيق وعدول عن محجة الطريق – قال الاستاذ ابو القاسم القشيري رحمه الله : شيوخ هذه الطايفة مجمعون[٧] على تعظيم الشريعة متصفون بسلوك طريق الرياضة مقيمون على متابعة السنة غير مخلين بشيء من آداب الديانة متفقون على ان من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن امره على اساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله سبحانه فيما يدعيه مفتونا . هلك في نفسه واهلك من اغتر به ممن ركن الى اباطيله . وقال الجنيد : ما اخذنا التصوف من القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المالوفات والمستحسنات. وقال ايضا : ان العارفين بالله اخذوا الاعمال عن الله واليه رجعوا فيها ولو بقيت الف عام لم انقص من اعمال البر ذرة الا ان يحال بي دونها . وروئي في يده سبحة فقيل له انت مع شرفك تاخذ بيدك سبحة فقال : طريق وصلت به الى ربي لا افارقه . وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلي اربع ماية ركعة ثم يعود الى بيته. وقال رويم: ما هذا الامر الا بذل الروح فان امكنك الدخول فيه مع هذا والا فلا تشتغل بترهات الصوفية . وقال ايضاً : قعودك مع كل طبقة من الناس اسلم من قعودك مع

---

١) إ : ذكرناه ‖ ٢) إ : ادركوا ‖ ٣) س : – وعلوم ؛ خ : وعلوم ‖ ٤) ر : المتفقه ‖ ٥) إ : – وذلك ‖ ٦) ر س : لمذاهب ‖ ٧) ق : مجموعون ‖

الصوفية . فان كان الخلق قعدوا على[١] الرسوم وقعدت هذه الطايفة على الحقايق . وطالب الخلق انفسهم بظواهر الشرع وطالب هؤلاء انفسهم بحقائق الورع ومداومة الصدق . فمن قعد معهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الايمان من قلبه . وقال يوسف بن الحسين الرازي : اذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم انه لا يجيء منه شيء . — وكتب الى الجنيد : لا اذاقك الله طعم[٢] نفسك فانك ان ذقتها لا تذوق بعدها خيرا ابدا . وقال ابن خفيف : الارادة استدامة الكد وترك الراحة وليس شيء اضر على المريد من مسامحة النفس في قبول الرخص والتاويلات . وقال الحصري : الناس يقولون الحصري لا يقول بالنوافل وعلي اوراد من حال الشباب لو تركت منها ركعة لعوقبت .

فان[٣] انضاف الى ذلك هتك[٤] استار الشريعة والتشاغل بالغيبة والوقيعة فامرهم اشد والفرار منهم اكد . وقال ابو يزيد البسطامي : لو نظرتم الى رجل اعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهي وحفظ الحدود واداب[٤] الشريعة . وقال ابو الحسين[٥] النوري : من رايته يدعي مع الله حالة تخرجه من حد العلم الشرعي فلا تقربن منه . وسيل ابو علي الروزباري عمن يسمع الملاهي ويقول هي لي حلال لاني قد وصلت الى درجة لا يوثر فيّ اختلاف الاحوال فقال : نعم قد وصل ولكن الى سقر . وقيل للنصراباذي[٦] : ان بعض الناس يجالس النسوان ويقول انا معصوم في رؤيتهن فقال : ما دامت الاشباح باقية فان الامر والنهي باق والتحليل والتحريم مخاطب به ولن يجترى على الشبهات الا من هو معرض بالحرمات[٦] . وقال ابو بكر الزقاق : تهت في تيه بني اسرائيل مقدار خمسة عشر يوما فلما وقعت على الطريق استقبلني انسان جندي فسقاني شربة[٨] ماء فعادت قسوتها على قلبي ثلاثين سنة — وقال ابو حفص الحداد : من لم يزن افعاله واحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده[٩] في ديوان الرجال . وسيل اسماعيل بن نجيد عن التصوف فقال : الصبر تحت الامر والنهي . وقال

---

١) إ : مع ‖ ٢) س خ : وان ‖ ٣) س : تهتك ؛ خ : هتك ‖ ٥) ف ق ر س : وأداء ؛ س خ : وآداب ‖ ٥) ف : الحسن . كذا ‖ ٦) إ : وقال النصر اباذي ‖ ٧) إ : بالحرمات ‖ ٨) ف ق ر س : + من ‖ ٩) ف : تعد ‖

ابو العباس الدينوري: نقضوا اركان التصوف وهدموا سبيلها وغيروا معانيها باسام[١] احدثوها سموا الطمع زيادة وسوء الادب اخلاصا والخروج عن الحق شطحا والتلذذ بالمذموم طيبة واتباع الهوى ابتلاء. والرجوع الى الدنيا وصولا وسوء الخلق صولة والبخل جلادة والسؤال عملا وبذاءة[٢] اللسان سلامة . وما هذا كان طريق القوم . والاخبار والحكايات عنهم في هذا المعنى اكثر من ان تحصى .

فان[٣] احب هذا المريد ان ينظر في شيء من علم التفسير والحديث فحسن لان القرآن والحديث مشتملان على حقايق الدين ومقامات اهل اليقين وفيها مجال عبرهم ومسرح فكرهم ومطمح نظرهم وشفاء ادوايهم ومنع اعدايهم وقمع اهوايهم . وهذا هو الفرق بينها وبين الفقه وان كان فرعا عنها ومأخوذا منها . وقد ذكرنا ما يلزمه من الافات قبل – وليأخذ من الفقه ما يحتاج اليه في عباداته ومعاملاته ويدع ما سوى ذلك .

واكد[٤] ما على المريد ان يكون له حال من الادب الظاهر والباطن فيما يتقلب فيه من الاحوال ويتصرف به[٥] من الاعمال من غناه وفقره وعافيته وضره[٦] وطاعته وعصيانه وذكره ونسيانه – ونعني بالذكر شهود القلب وحضوره وبالنسيان[٧] غيبته واستناره فذلك مما يجب مراعاته في السلوك والوصول لانه من اقوى العمد والاصول وفي ذلك من خلوص التوحيد ومحاسن اوصاف العبيد ما يندفع بها عن باطنه انواع من الكروب والامال ويتخلص بها من تبعات[٨] الذنوب ومتاعب الاعمال . اما الغنى والعافية والطاعة والذكر – وفي معناها[٩] رفعة القدر والجاه – فادبها[١٠] الباطن معرفته بجلال ربه وعظمته وكبريايه وقدرته ويكفي في ذلك معرفة قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره »[١١] – ومعرفته بخسة نفسه وضعتها ومهانتها وآفتها[١٢] ويكفي في ذلك معرفة قوله تعالى[١٣] : « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا

١) ف ق ر : باسامي ‖ ٢) ر س : وبذاذة ‖ ٣) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال ثامن في ذكر عدم منافاة النظر في علم القرآن والحديث للتصوف ‖ ٤) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال تاسع في ذكر احوال شريفة ينبغي ان يكون عليها المريد ‖ ٥) ف ق ر س: فيه ‖ ٦) س خ: وضروه ‖ ٧) س: والنسيان ؛ خ: وبالنسيان ‖ ٨) س خ : تباعات ‖ ٩) إ : معناها ‖ ١٠) إ : فادبها ‖ ١١) قرآن: ٦: ٩١ ‖ ١٢) ر س : وآفاتها ‖ ١٣) ف ق ر س : سبحانه ‖

مذكورًا »[1] – فاذا احكم هاتين المعرفتين علم على القطع حينئذ انه لا وجه لاستحقاقه شيئا من ذلك وان قل لولا فضل الله وكرمه وانه لو صب عليه انواع البلايا وامتحنه باشد الرزايا واوقعه في سبب يضل به في دينه ويهلك به في[2] دنياه لكان اهلا له ومستحقا وقد فعل ذلك بامم لا تحصى – فينبغي ان يستغرقه الفرح بربه والشكر له ويشتغل بذلك عن التطلع الى ما هو اعلى والكون على حال يتوهمه اولى – وادبها[3] الظاهر اما الغنى والعافية وما في معناهما فالاستعانة بها على طاعة الله عز وجل وان لا يستعين بها[4] على معصيته[5].

واما المطلعة فخلاصها وتحسينها واتهام النفس في الوفا. بجموقها ورجا. قبولها – واما الذكر فان لا يجره البسط الى سوء الادب ولا يمنعه القبض من العمل بما يجب او يستحب ويراعي في ذلك آداب الحضرة ولا يخل منها بثقال ذرة.

واما الفقر والضر – وفي معناهما الضعة والخمول – فادبها[6] الباطن معرفته بان الحق تعلى سلك به سبيل احبابه من انبيايه واوليايه ورآه اهلًا لتقريبه واصطفايه وعلمه بان في الامكان ما هو اعظم مما به[7] ابتلاه في دينه ودنياه – فينبغي ان يستغرقه الفرح بمولاه لايثاره اياه بما به[8] ابلاه واولاه والشكر له على اصابته منه بهذا القدر اليسير لطفا منه به ونظرا له وبشغله ذلك من مكابدة البلوى والاستراحة الى البث والشكوى. فقد حكي انه كان لبعض الاوليا. صديق فحبسه السلطان فارسل اليه فقال له صاحبه اشكر الله فضرب الرجل فكتب اليه فقال اشكر الله[9] فجي. بمجوسي مبطون وقيد فجعلت حلقة من قيده على رجل هذا وحلقة على رجل المجوسي فكان يقوم المجوسي بالليل مرات وهذا يحتاج ان يقوم معه ويقف على رأسه حتى يفرغ فكتب الى صاحبه – فقال : اشكر الله – فقال الى متى تقول واي بلا. فوق هذا. فقال له صاحبه : لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع. وقال رجل لسهل بن عبد الله : ان اللص دخل داري واخذ متاعي فقال له : اشكر الله ولو دخل اللص قلبك – وهو

---

١) قرآن : ٧٦ : ١ ‖ ٢) إ : – في ‖ ٣) إ : وادبها ‖ ٤) ف : بها ؛ ف خ ق : بها ‖ ٥) إ ق : معصية ‖ ٦) ر : فادبها ‖ ٧) ق : – به ‖ ٨) ف ق ر س : – به ‖ ٩) إ : – فضرب ... الله ‖

الشيطان – وافسد التوحيد مـاذا كنت تصنع . ومر بعض المشايخ في شارع فصب على رأسه طست رماد فسجد لله تعالى[1] شكرا . فقيل له في ذلك فقال : كنت انتظر ان يصب علي النار فالاقتصار على الرماد نعمة – وادبها الظاهر حسن الصبر وسؤال كشف الضر واستعمال ظاهر السنـة في التسبب والطب والفرار من الموذي والمهلك . وان ترقى في المعرفة حتى ترك الدعاء.[2] والسؤال في بعض حالاته فحسن. فقد قيل ألسنة المبتدئين منطلقة بالدعاء. وألسنة المتحققين خرست عن ذلك . وسيل الواسطي ان يدعوا فقال : اخشى ان دعوت ان يقال لي ان سألتنا[3] ما لك عندنا فقد اتهمتنا وان سألتنا ما ليس لك عندنا فقـد اسات الثناء.[4] علينا وان رضيت اجزينا لك من الامور ما قضينا لك في الدهور. وروى عن عبدالله بن منازل انه قال : ما دعوت منذ خمسين سنة ولا اريد ان يدعو لي احد – يعني بذلك الدعاء.[5] المقصود به قضاء حاجته في خاصته لا مطلقا. اذ الدعاء على قصد اظهار[6] العبودية وموافقة الامر والدعـاء للغير على وجه مندوب اليه في الشرع مطلوب من الخاصة والعامة لا يضاد شيئاً من مقاماتهم العالية بل يجدون المزيد بذلك فيها. الا ان يكون مستغرقا في حال من الاحوال فلا كلام في مثل هذا. وان غلب عليه اليقين حتى ترك التسبب والتطبب فحسن ايضا قد[7] فعله جماعة من الائمة . وقد قيل : دخل جماعة على الجنيد فقالوا نطلب الرزق فقال ان علمتم في اي موضع هو فاطلبوه . قالوا : نسأل[8] الله ذلك فقال ان علمتم انه ينساكم فذكروه فقالوا فندخل البيت فنتوكل على الله[9] فقال التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة . وقال ابو حمزة : اني لاستحي من الله ان ادخل البادية وانا شبعان وقـد اعتقدت التوكل لئلا يكون سعي على الشبع زادا اتزوده . وقيل لحبيب العجمي : تركت التجارة فقال وجدت الكفيل ثقة. وقيل لابي بكر الصديق[10] في مرضه : لو دعونا لك طبيبا فقال : الطبيب قد نظر الي وقال اني فعال لما اريد . وقيل لابي الدرداء : الا تدعو لـك طبيبا. فقال : الطبيب امرضني – وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل قال اذا دخل

١) س : – تعالى || ٢) ر : – الدعاء || ٣) ق : سألت || ٤) س : الادب ؛ خ : الثناء || ٥) إ : – الدعاء || ٦) س خ : اشعار || ٧) س : وقد || ٨) ف ر : فنسأل || ٩) ف ق ر س : – على الله || ١٠) ق : + رضي الله عنه ||

عليه الضر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحاله وينظر الى قيام الله تعالى عليه.

واما العصيان والنسيان فادبها الباطن علمه بانهما بقضاء من الله وقدر معرفته بوجه[1] اللطف في تخلية العبد والعصيان وتسليطه عليه دواعي الغفلة والنسيان. وذلك انه اراد ان تعرف صفاته العلية وتشهد نعوته القدسية كالعزة والعدل في سلب العصمة منها والاخذ بها والمنة والفضل في العفو عنها وقبول التوبة منها ثم في ذلك من وجود الرهب ونفي العجب حسبما ورد في الخبر: لو لم تذنبوا لذهب الله بكم[2]. وفي الخبر ايضا: لو لم تذنبوا خشيت عليكم ما هو[3] اشد من ذلك العجب العجب. وقال ابراهيم بن ادهم: طفت ذات ليلة بالبيت الحرام وكانت ليلة مطرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف[4] وطابت نفسي فوقفت عند الملتزم وقلت اللهم اعصمني حتى لا اعصيك[5] فهتف بي هاتف فقال: يا ابا ابراهيم انت تسألني اعصمك[6] وكل عبادي يسألوني العصمة واذا[7] عصمتهم[8] فعلى من اتفضل ولمن اغفر.

فيجد بهذه الاحوال من المزيد ما لا[9] يجده بالطاعة والذكر وهو المعني بقول من قال: رب ذنب ادخل صاحبه الجنة. فيستغرقه حينئذ شهود اللطف في المنف ويشغله ذلك عن تكدير الوقت بالحزن على فوات الحظ الابدي والنعيم السرمدي. وقد قال بعض العارفين: العاقل عن الله تعالى من غرق شدايد الزمان في الالطاف الجارية من الله عليه[10] وغرق اساءة نفسه في احسان الله اليه: «فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون»[11]. وهذه الآداب الباطنية[12] والمعارف الروحانية لا تصح ويجد المزيد عنها[13] الا من كان له قلب حي بالايمان واليقين. وعلامة ذلك الا يقع منه خلل بالاداب الظاهرة والمعاملات البدنية التي سنذكرها ولا يقع منه فتور فيها بسبب ذلك بل يشتد حرصه عليها ويعظم فرحه بما حصل له منها. فمثل هذا الشخص يصح في حقه ذلك ويجد المزيد بتذكار تلك اللطايف

---

١) ق : + من || ٢) إ : لكم || ٣) إ :- ما هو || ٤) ف خ ر س : المطاف || ٥) س : + ابدا || ٦) س خ : العصمة || ٧) ق : فاذا || ٨) س : عُصمتم ؛ خ : عصمتهم || ٩) ق :- لا || ١٠) ف ق ر س :- الجارية من الله عليه || ١١) قرآن : ٧ : ٦٧ || ١٢) ر : الباطنة || ١٣) س خ : عليها ||

والمعارف - واما غيره فيجب عليه الا يخطرها بخاطره ولا يتصرف فيها بفكره. فانها[١] تضره ضررا عظيما. وليقتصر على الآداب الظاهرة وهي المبادرة الى التوبة وحل عقد الاصرار وتذكار الخوف والندم والبكا. والفزع الى الرغبة والدعا. وحسن التيقظ في لزوم الذكر واحضار السر.

ومن الآداب الظاهرة في جميع هذه الاحوال اللازمة للمريد افراد كلّ حالة بذكر مخصوص يناسبها ومناجاة تليق بها لكونه يبعث[٢] الحضور والمراقبة ويجعل ذلك هجيراه ومعتاده. فاذا لازم العبد هذه الوظايف وتحقق بهذه المعاني والمعارف فقد قام بواجب مقام الشكر واستحق بذلك الزيادة الموعود بها في محكم الذكر - ولا زيادة اعلى من التحقيق في هذه الاحوال والترقي فيها - وحصل على اغتنام وقته النفيس وزوال حظه الخسيس ووصل الى مقصوده على طريق مختصر وقام بحق معبوده في كل ورد وصدر. فهنيا لهذا العبد ما اختص به من خصوص المزايا وخلع عليه من خلع العطايا.

وينبغي[٣] للمريد ان يستعمل حسن الادب مع كل من اتصف بعلم او دين فلا يرد عليهم قولا ولا يعيب عليهم فعلا الا باذن من الشرع عن علم محقق منه ولا يظن باحد منهم ظن السوء الا اذا حصل على يقين من امره. واذا رأى كلاما لبعض اهل عصره او غيرهم او تعرف فعلا من افعالهم فليعرضه على مقتضى الكتاب والسنة على مذهب اهل الظاهر او على مذهب اهل الباطن[٤] فان وافقه فحسن ولا طلب له تأويلا صحيحا. فان وجده فحسن والا فليسلمه له. الا ان يقطع عليه بمخالفة فليرده حينئذ ولا يبالي به[٥] وذلك هو الواجب في حقه. هذا كله ان احتاج الى ذلك وكان مما يعنيه. وان كان مما لا يعنيه فلا يأخذ في ذلك باثبات ولا نفي ولا تصحيح ولا ابطال وليتأدب بما ادبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال: من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

وليراع حسن الادب مع خاصة الناس وعامتهم وفي جميع اموره حسبا

---

١) ر: فانه ‖ ٢) ف ر س: بنعث ‖ ٣) إ ف ق ر س: ط: جواب سؤال عاش في ذكر آداب النظر في كلام العلماء ‖ ٤) س: - او على مذهب اهل الباطن؛ س خ: او على ... الباطن ‖ ٥) ر س: ياليه ‖

شرحناه . فاذا احكم جميع ما ذكرناه وراعى الادب الذي وصفناه استفاد باذن الله قوة باطنية تحمله على اعتناق الاعمال والترقي في المقامات والاحوال واطلع بها على اسرار العلم الظاهر واشرق في قلبه نور اليقين الباهر وعرف مداخل الغرور في الاعمال والعلوم . وفرق بين الحقايق والرسوم . ولا تكون له حينئذ همة الا فيما يرضي ربه ولا نية الا فيما يرجو نفعه ويوجب[1] قربه وذاق حلاوة الايمان واليقين وخفت عليه اعمال المتقين . وهذه الخفة الكاينة في هذا المقام محمودة ملحقة بما استثنيناه من انواع الخفة المحمودة قبل هذا وهي من الترويحات التي يروح الحق تعالى بها بعض عباده كرامة لهم ولطفا بهم . وليست بلازمة في مقام العبودية بل ربما ضوعف على بعضهم الثقل وسلط عليهم القبض وهم قايمون بين يديه بوصف الاقبال راضون بما اقامهم فيه من تحمل الاثقال . ويكون حالهم اتم من حال الاخيرين لانهم يستفيدون بذلك مزيد ادب ومراقبة ويسلمون من انواع من[2] الاخطار التي يتعرض لها سواهم . فقد قال الواسطي رحمه الله : احذروا لذة العطاء فانها غطاء[3] لاهل الصفاء . وقال ايضاً : اياكم وحلاوة الطاعات فان تحتها[4] سموما[5] قاتلات . وذلك من اجل ان للنفس هنا[6] انتعاشا وركونا الى ما ظهر عليها ووقوفا معه فيوجب ذلك غفلة ما يحرم بسببها مزيدا كثيرا[7] لا يقدر قدره ولا يعرف خطره واليه — والله اعلم — اشار الجنيد بقوله : لو اقبل صادق على الله الف سنة ثم اعرض عنه لحظة كان ما فاته اعظم مما ناله . ومعنى وقوفه معه رضاه به واشتغاله بذلك عن ربه . كما قال بعض المشايخ[8] في الرضى والتسليم : اخاف ان يشغلني حلاوتها عن الله عز وجل — وقال الاستاذ ابو القاسم[9] : رؤية القرب حجاب عن القرب فمن شاهد لنفسه محلا او نفسا فهو ممكور به . ولهذا قالوا : اوحشك الله من قربه اي من شهودك لقربه . فان الاستيناس بقربه من سمات الغرة به اذ الحق تعالى وراء كل انس وان[10] مواضع الحقيقة توجب الدهش والمحو[11] . وفي قريب من هذا قالوا :

---

١) س : ويرجو ؛ غ : ويوجب ‖ ٢) ر : — من ‖ ٣) إ : عطاء ‖ ٤) س غ : تحققها ‖ ٥) ف : سموم ‖ ٦) ف ر : ها. هنا ‖ ٧) ف ر س : مزيد كثير ‖ ٨) ف ط : هو سيدي عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ الشاذلي رضي الله عنهم اجمعين ‖ ٩) ف ر س : + القشيري ‖ ١٠) ف : فان ‖ ١١) س : والمحق ؛ غ : والمحو ‖

مِحْنَتِي فِيكَ أَنَّنِي لَا أُبَالِي بِمِحْنَتِي
قُرْبُكُمْ مِثْلُ بُعْدِكُمْ فَمَتَى وَقْتُ رَاحَتِي

وكان الاستاذ ابو علي الدقاق كثيرا ما ينشد :

وِدَادُكُمْ هَجْرٌ وَحُبُّكُمْ قِلًى وَقُرْبُكُمْ بُعْدٌ وَسِلْمُكُمْ حَرْبُ

ورأى ابو الحسين النوري بعض اصحاب ابي حمزة فقال : أنت من اصحاب ابي حمزة الذي يشير الى القرب ، اذا لقيته فقل لـه ان ابا الحسين النوري[1] يقرؤك السلام ويقول لك : قرب القرب فيما نحن فيه بعد البعد — وتحقيق ما ذكرناه يستدعي طولا وكشفا عن اسرار لا حاجة بنا الى كشفها .

واذا انتهى المريد الى هذا الحد امتلأ قلبه بانوار باهرة ومعان قاهرة فظهر له من جلال ربه وعظمته ومن عجايب عوالم قدرته وحكمته ما يعجز عن وصفه.

ومن[2] ها هنا ينجز الكلام على مسئلة الشيخ ابي طالب المذكورة في كتاب الخوف في ذكر المكر ولا انجاسر هنا على زيادة الكلام فيها على ما ذكرناه في الكتاب الاول . فلتقنعوا بذلك ولتعتبروا هذه النبذة التي ذكرناها وتوفوها حقها من النظر فان الكلام فيها منظوم مرتب مرتبط بعضه ببعض سقناها[3] مساق سلوك المريد الى منازل التوحيد وانهينا الامر فيها الى الغاية التي تمكن فيها العبارة وذكرنا فيها من المعاني الكلية والاداب الجلية[4] ما يفتقر بسطه الى مجلدات . وفي ضمن ذلك كله استيفاء الجواب عن جميع اسيلتكم[5] الا ما اعتذرنا[6] عنه منها وذلك هو مقصودنا بالذات في ايراد هذه الكلمات .

فنسأل ربنا جل وعلا ان يوفقنا وإياكم[7] للعمل بما علمنا وان لا يجعله حجة علينا . والمراد منكم الدعاء لي بمثل هـذا وكذلك كل من نظر فيه من اصحابنا . ومع هذا فـلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم هو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا[8] محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

---

١) ر : — النوري || ٢) إ ف ق ر س : ط : جواب سؤال حادي عشر بالاحالة على كتاب آخر || ٣) س : سقناه ؛ خ : سقناهـا || ٤) إ : الجلية || ٥) س خ : اسيلتهم || ٦) س خ : اعتدونا . كذا || ٧) إ : — وإياكم || ٨) ف خ ر : + ومولانا ||

[الرسالة السابعة]

كتاب تضمن ذكر مراتب الناس في الصبر والرضى عند نزول البلايا بهم[١]

الحمد لله وحده . وقد بلغني كتابكم وانتم تذكرون فيه مسئلة الصبر على البلاء وانكم اختلفتم فيها . وليس في ذلك اشكال ولا ما يوجب الاختلاف. فان الصبر على البلايا[٢] مقام من مقامات اليقين وهو تبع له في القوة والضعف والزيادة والنقصان . والصبر عبارة عن حبس النفس عن تعاطي افعال واقوال اختيارية مضادة للشريعة والحقيقة موافقة للجبلة والطبيعة . ولا يتأتى ذلك على الوجه المطلوب الا لمن قوي يقينه وضعفت صفات نفسه . واما من كان في نهاية ضعف اليقين وقوة صفات النفس فلا يقدر على ذلك ولا يدوم عليه بل يسترسل على مقتضى طبعه بلا رادع ولا مانع حتى ربما قارب الكفر - والعياذ بالله - وهو نسبة الله تعالى الى الجور .

وتتفاوت مراتب الناس بين هاذين المعنيين تفاوتا لا ينحصر كما يتفاوتون في اليقين . فان قوي يقينه جدا لم يجد لما اصابه من البلاء ألما بل ربما استحلاه واستطابه . وهذا من اعلى مقامات المحبة والرضى. كما روي عن سري السقطي وقيل له : هل يجد المحب طعم الالم[٣] فقال لا - قيل[٤] وان ضرب بالسيف قال وان ضرب بالسيف سبعين ضربة[٥] على ضربة . ودون ذلك ان يستحليه بقلبه ويجد ألمه بجسده كما قيل : الرضى سرور القلب بمر القضاء . وقال ابو يعقوب النهرجوري : اذا استكمل العبد حقايق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء شدة . ودون ذلك ان يستوي عنده وجود ذلك وعدمه . فان اعتراه ضعف في يقينه انحط عن هذه المراتب فيضيق صدره لعدم الانشراح المستفاد من نور اليقين فيوديه ذلك الى الشكوى والجزع . ولقد عدوا من ضيق الصدر قول العبد عند البلاء : لا حول ولا قوة الا بالله . وهذا من سيئات المقربين التي هي من حسنات اصحاب اليمين . وعدوا ايضاً أنين المريض من الشكوى وجعلوه

١) س خ : وله ايضاً رضي الله عنه كتاب تضمن اختلاف احوال الناس في الصبر والرضى عند نزول البلاء ‖ ٢) ف ر س : البلاء ‖ ٣) ر س خ : البلاء ‖ ٤) ر : فقيل ‖ ٥) إ : - ضربة ‖

مما يكتب على العبد . وقد كان طاووس يكره الانين في المرض . ويروى في بعض الاخبار ان زكريا عليه السلام لما وضع على رأسه المنشار انّ انة . فاوحى الله تعالى اليه ان صعدت الي منك[١] انة اخرى لاقلبن السموات والارض بعضها على بعض .

فان حبس الانسان نفسه عن هذه الامور وعن الاخبار ببليته على سبيل الاستراحة الى الشكوى كان صابرا صبرا جميلا . حسبما ذكره الله تعالى في كتابه مخبرا عن نبيه يعقوب عليه السلام في قوله[٢] : « فصبر جميل »[٣] قيل هو الذي لا شكوى فيه ولا اظهار . فان واقع هذه الاشياء وكف نفسه عما وراء ذلك من كثرة التشكي واظهار التسخط ومجاوزة حد الملم واظهار التبرم والذم كان له مقام في الصبر ولكن ليس بمقام الخصوص . فان صدرت منه هذه الاشياء كلها كان خارجا عن حدود الصبر بالكلية داخلا في ضده وهو الجزع . فان شاهد قبح فعله وراض نفسه على التكلف عنه وكان عنده في ذلك تكلف كان متصبرا وهو التصل للصبر كالتزهد وهو التكلف للزهد . وليس بعد ذلك مقام يذكر ولا حال ينبط[٤] .

وحاصل هذا ان وجدان الالم لا يناقض الصبر اذ لا اختيار للعبد فيه والعمل الاختياري الذي اقتضاه وجدان الالم مخالفا للشريعة والحقيقة يناقضه الا انه يقل ويكثر ويزيد وينقص على حسب مراتب اليقين . وهو في اصله على ثلاثة اوجه مذكورة في القرآن : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين . ولكل من هذه الوجوه مراتب لا تنحصر . قال بعض العارفين : لا يستحق العبد اليقين حتى يقطع كل سبب بينه وبين الله من العرش الى الثرى حتى[٥] يكون مراده الله لا لا غيره ويؤثر الله على كل شيء سواه . وليس لزيادات اليقين نهاية كلما تفهموا وتفقهوا في الدين ازدادوا يقينا على يقين .

رزقنا الله منه الحظ الاوفر بمنه وكرمه .

---

١) ا : — منك ‖ ٢) س : — في قوله ؛ س خ : في قوله تعالى ‖ ٣) قرآن : ١٢ : ١٨ ‖ ٤) س : ينضبط : س خ : ينبط ‖ ٥) س : وحتى ‖

[الرسالة الثامنة]

كتاب[1] تضمن ذكر ما يتقدمه التايب من اعمال واحوال توجب له الثبات في مقامه وفيه زيادات مفيدة[2]

الحمد لله وحده . اما بعد فقد وصلنا[3] كتابكم وعلمنا ما فيها لم نر فيها ما يقتضي جوابا يكون صوابا الا ما كان من شأن العبد التواب وسلوكه مسلك من اخلص لله واناب . فقد سرنا ذلك كثيرا واحتسبنا له بذلك من ربنا اجرا كبيرا . وذلكم رحمني الله ربي وربكم فتح الهي ونفح رباني لا يقدر قدره الا من عرفه . وهو من نتايج التعرض المامور به في الحديث المشهور والذي عليه المعول[4] من جميع الامور لافتقار جميع المقامات الايمانية اليه ابتداء وانتهاء ودواما وبقاء . فلا غنى للمريد عنه في ترقيه فيها ولا بد منه في تنقله عنها . فلا جرم وجب على العبد مراعاة كونه وبقايه وزيادته ونمايه واعمال جده في حفظ جوهره المصون وتحصينه[5] بامنع الحصون[6] وتوفية حق نزوله والمامه وبذل الجهد في بره واكرامه . وذلك بشكره اللايق بالمقام المنزول به والحال الحادث بسببه . وعلم ذلك والعمل به من فروض الاعيان لكونه من حق الايمان . وهو[7] من الواجبات التي تستغرق الاعمار عند ذوي العقول والابصار . فاذا عرفتم ذلك فاعلموا ان ما[8] اشرنا اليه ينقسم على قسمين جملي وتفصيلي .

اما الجملي فقد اشتمل على بيانه واثارة برهانه كتاب ربنا المنزل واحاديث نبيه المرسل واقاويل السلف الصالحين وما اورده في تأويل ذلك ومعناه ايمة الدين . فعلى مستفيد العلم من ذلك وسالك تلك المسالك ان يصغي بسمع قلبه الى ما يرد عليه منها ويلغي المراء والجدال فيها ويتلقى بالقبول ما يتلوى على العقول حتى تنكشف له حقايقها في ثاني حال ويتضح له اذ ذاك كل اشكال.

واما التفصيلي وهو علم مقامات العبد واحواله في سكونه وانتقاله وخلطته واعتزاله وزمانه ومحاله[9] وغناه واقلاله وتفرقه واشتغاله[10] وجميع افعاله واقواله

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه كتاب . . . ‖ ٢) إ : مفيدات ‖ ٣) إ : وصلنا ‖
٤) إ : المعول ‖ ٥) إ : وتحصيله ‖ ٦) إ : المحصون ‖ ٧) ر : – وهو ‖
٨) إ : انما ‖ ٩) ر س : وعاله ‖ ١٠) ر : واشتاله ‖

لا[1] يستقل العبد بذلك على التحقيق الا بصحبة صديق صديق قد غاص في تلك البحار وميز بين الجواهر والاحجار وايده مولاه بما به تولاه فترك له ما يهوى واقر بالحقيقة وهجر الدعوى فيعلمه بما يظهر له من خفياته وينبهه على عيوبه وآفاته ويخبره بما يليق به في حالاته . فان ظفر هذا العبد بهذا الفرد فليشدد[2] عليه يد الضنين وليسلك سبيله المستبين . والا فليقلد دليل الاحتياط والحزم ويتحر[3] منهج اهل التقوى والعزم فذلك اجدر بنجح[4] المطالب ونيل المآرب .

وقد رأينا ان نذكر هنا من حقوق مقام التوبة ما يحسن في هذا الموطن اذ استيفاء حقوق كل مقام بالذكر والبيان في هذه البراءة لا يمكن وفك خاتمه عن مستودعات سرايره في هذا الزمان لا يحسن لعدم الفايدة في ذلك البتة .

فاعلموا ان مقام التوبة هو اول المقامات واساسها وعليه[5] تنبني انواعها واجناسها وهي تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . فيدخل في عموم هذا حركات الظاهر والباطن في العقود والاقوال والافعال . فعلى العبد اولا ان يعتقد بتوبته اداء حق مولاه ليرضى عنه[6] ويتولاه وينيله في جواره ما يتمناه . ثم ينظر الى حركات باطنه فينفي عنها اعتقاد المذاهب الباطلة والميل الى زخارف العاجلة والى حركات ظاهره فيمسك بها سنن[7] الاتباع ويصرفها عن مقتضى[8] العادات والطباع . فيثمر له ذلك انواع الخيرات ومحاسن الآداب المرضيات من المسارعة الى البر والتقوى وايثار الآخرة على الدنيا والتأني والتثبت قبل الاقدام وحسن المراقبة للرقيب العلام واغتنام الاوقات ومراعاة الانفاس وذم الجوارح وضبط الحواس والتيقظ على النفس في كل همة ردية وتصحيح قصده بصدق النية وحسن الطوية والمبادرة الى رد المظالم والتباعات واصلاح ما ضيع من الفرايض الواجبات وترك الاشر والبطر والتباعد عن مظان[9] الخطر وخفض الجناح ولين الجانب وسلامة الصدر من الآفات والمعايب والموالات والمعادات في الدين والشفقة والنصيحة لكافة المسلمين الى غير ذلك من وظايف الدين وسنن المرسلين . وينتفي عنه اضدادها من وجوه الطغيان وكباير الاثم والعدوان اعاذنا الله من ذلك .

---

١) ف ر س : فلا ‖ ٢) س خ : فليشد ‖ ٣) [كذا عوض « يتحرى »] ؛ س خ : فليتحر ‖ ٤) ر : بنجح ‖ ٥) ف ر س : وعليها ؛ ف خ : وعليه ‖ ٦) س : عليه ‖ ٧) س خ : سبل ‖ ٨) س خ : مقتضيات ‖ ٩) ر : مظان ‖

ثم اعلموا ان التايب ابدا في ابتدايه منكمش في حاله ذو لوعة وغصة قد استولى عليه سكر ما هو فيه وغلب عليه وارد يستوفيه لا يرى غير حالته الراهنة حالا ولا يقدر لنفسه عنها انتقالا قد سكنت نفسه وضعفت دواعيها وقوى انسه بحاله[١] التي هو فيها . فلا يزال كذلك حتى تجلب عليه خيل الابتلاء ورجله[٢] التي لا بد له منها وتنزل بساحته جنود الخواطر التي كان خليا عنها . فعليه حينئذ الوفاء بعقده والمحافظة على عهده . فيلازم حاله الاولى ويشمر عن ساعده في قتال جنود الهوى . وهذا محل تفاوت الناس ومواقف اقدام الابطال والاكياس وهو الجهاد الاكبر الذي يهون جهاد الكفار عنده ويستحقر . فان غلب فاز بتلك النفس والتمتع في رياض القدس وان غُلب سلب الانس وحصل من مرامه على العكس . فعليه حينئذ تجديد التوبة مرة اخرى وطلب الاقالة والرجوع الى ما هو اولى به واحرى . وهكذا يفعل ما دام في الدنيا . وليجعل عمدته في حركاته الظاهرة والباطنة التبرء من الحول والقوة بالكلية وان لا يبقى مما يتبع من ان يلقي بيده سلما الى مولاه بقية . فذلك هو ملاك[٣] هذا الامر والعروة الوثقى . فمن تمسك بها فقد اعتصم بالمعتصم الاوفى .

فعلى هذا المهيع درج السلف الصالحون في ساير القرون وبهذا انتزع سارع القاصدون الى فعل ما به يومرون وكل ما ذكرناه وما لم نذكره من حقوق الايمان ومزيد الايقان كان دابهم وديدانهم[٤] وخلقهم ودينهم . وكان ذلك لهم بمنزلة الغذاء لمريد البقاء لا مشقة عليهم فيه الا التذاذهم[٥] به ولا مطمع لعدو في صرفهم عنه الا اعتصامهم به لانهم كانوا على بينات[٦] من ربهم ويقين صادق من دينهم .

ثم هم متفاوتون فيما اتسموا فيه ومتباينون فيما تسم لهم منه : فمنهم من دام على هذا الاسلوب من اعمال الجوارح والقلوب وجعلوه وسيلتهم في اقترابهم[٧] من علام الغيوب مع احكامهم على الظاهر وحصولهم منه على ثلج الخاطر واقتصروا من ذلك على ما يخصهم في انفسهم وان استفتاهم احد فيه احالوه على غيرهم ورأوا في ذلك عصمة امرهم . وقد روى في ذلك عنهم غير شيء .

١) ر : بحالته ‖ ٢) إ : ورحله ‖ ٣) ر : مالك ‖ ٤) ف ر س : وديدنهم ‖
٥) إ : التدادهم ‖ ٦) ر س : بينة ‖ ٧) إ : اقتدايهم ‖

ومنهم من غلب عليه[1] الاشفاق على الخلق لما رأوا البدع[2] قد حدثت فيهم وحب الدنيا قد ظهر عليهم . فرأوا واجبا التعرض لهم لانقاذهم من الجهالات التي تعتريهم في دينهم ومن الظلامات الواقعة بينهم في دنياهم . فتفاوت هؤلاء ايضا تفاوتا كثيرا :

٭

فمنهم من غلبت عليه المخافة من ابتداع ما لم يكن في الزمن[3] الاول ورأوا هذا من البلاء النازل بهم فسلكوا مسلك الاحتياط واقتصروا معهم في الدين على ظاهر المنقول ولم يخوضوا في قضيات المعقول . فان ماروهم او جادلوهم في ذلك رفضوهم رفضا وابغضوهم في الدين بغضا ورأوا في مكالمتهم والاخذ في معاناتهم تضييعا لاوقاتهم وشغلا بما لا يعنيهم . واما في الدنيا فاختلفوا فاكثرهم لم يقدم على ولاية لا[4] طايعا ولا كارها لغلبة الخوف عليه وتوقع الخطر فيه . وبعضهم اقدم مطلقا لقوته في الدين وبصره بمصالح المسلمين لكن الحذر لم يفارقه طرفة عين لان الخلاص في ذلك ليس بين .

٭

ومنهم من استوعب في ذلك زمانه واستغرق في ذلك اوقاته وآناءه وتفننوا[5] فيما شاءوه من ذلك حين رأوا سيول الفتن قد اقبلت ونيران الباطل قد اشتعلت فشمروا عن سواعدهم وانتصبوا وتصبوا في دفع ذلك ونصبوا . ووضعوا للناس القوانين التي عليها يعتقدون وبينوا لهم طرقات الهدى لعلهم يهتدون وقعدوا لاعداء دينهم بكل مرصد وسدوا ثغورهم اوثق سد[6] . ثم اختلفوا في الولايات على نحو ما ذكرناه . بيد انهم وجدوا على ما راموه من ذلك اعوانا لم يألوهم طاعة واذعانا فتم لهم بذلك مرادهم وانجحت اراؤهم وقصودهم[7] . غير انهم ادركتهم محن وبلايا لم يجدوا عنها محيصا واستقبلتهم فتن ورزايا محصتهم تمحيصا . وكل واحد ممن ذكرناه في نظره مصيب وله من حظه[8] من ربه اوفر نصيب .

---

١) س : عليهم ‖ ٢) س : البدعة ‖ ٣) ر س : الزمان ‖ ٤) ر س : — لا ‖
٥) ا : وتفننوا ‖ ٦) ا : شد ‖ ٧) ر : وقصدوهم ‖ ٨) س : — من حظه ‖

وهذه الطوايف في كل زمان يقل عـدده ويضعف مددهم حتى افضت الامور الينا وقد اندرست اعلام الدين وعفت آثاره وعدم حماته وانصاره وغرق الناس في بحر الدنيا وماتت القلوب وذهب الحياء. وانحرفت عقول الخواص عن صوب السداد وتله العوام في متاهات الجهل والفساد وذهب العارفون وعـدم الموقنون . اظلمت الارض بذهاب انوارها وافول شموسها واقمارهـا وصار الولاة عداة والعلماء غواة والاخوان خونة والقراء فسقة ظلمة وخفي الحق عند ظهور الباطل وادعى معرفته وعلمه كل غبي مدع[1] ومفتون جاهل . وذكر اصنافهم بطول ولا[2] تحتمله اكثر العقول . فاعتبروا يا اولي الابصار وانظروا هل يستقر لاحد في هذا الوقت قرار او يعلق بقلبه شيء من الانوار او يصفو مشربه عن شرب الاقدار والاكدار . ام كيف يسع احدا فيه تفرغ الى ما ليس بواجب وانى تصح له فيه نية مع شمول هذه المصايب .

فالمتعين[3] على المريد في هذا الزمان الفريـد ان يقطع عمره بالحزن الطويل والبكاء والعويل ويتنصح كل لبيب عاقل ويكون له في نفسه شغل شاغل وياخذ نفسه بالاشد فالاشد ويفر من الناس فراره من الاسد ويدع الرخص والتاويلات ولا يقدم بعقده وعمله الا على الامور البينات . فان لازم هذا العمل حتى جاءه الاجل حظي بالامان وفاز بتضعيف الاجر الموعود به العاملون في آخر الزمان . وان صده اللعين عن هذا الصراط المبين لم يفلح اية سلك ولم يبال الله تعالى في اي واد من اودية الدنيا هلك .

وواجب على كل مريد ناصح لنفسه سالم في عقله وحدسه ان يزن جميع ما ذكرناه بميزان الانصاف وينظر فيه بعقل سليم عن الميل والانحراف فيعترف به اتم اعتراف فيسلك جادة طريقه ويدين بتصديقه وتحقيقه بهداية ربه وتوفيقه — وقد ذكر الشيخ المحقق ابو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلي في كتاب[4] الانوار كلاما نبه فيه على طبقات العباد وما ظهر في الارض من الفساد رأيت ان احكيه على وجه ليحصل الناظر فيه على كنهه فقال :

« كان اخص الناس بفهم[5] علم الكتاب وشرح معرفة السنة وعمل الرسول

١) ر : مـدعي ‖ ٢) ر : لا ‖ ٣) إ : فالمتبر ؛ ر : فالواجب ‖ ٤) س : كتبه ‖ ٥) ر : بفهم ‖

عليه السلام اهل القرن الاول لانهم افضل الناس عقلا واوسعهم علما . ثم جاء القرن الثاني فكانوا اعقل الناس واعلمهم بعد الصحابة بمعاني[١] آي الكتاب والعمل بالاقتداء وفهم ما شرحه الصحابة من البيان – غير ان الايثار الذي خص به الصحابة رق في التابعين وكذلك الزهد في الحلال وحدث فيهم تيز اهل البدع يضلون الجهال سرا ويستميلون العوام خفيا . ثم جاء القرن الثالث فذهب اكثر اهل العلم وهم المتمسكون بالتصديق العاملون بالحدود لفقد ما عليه الصحابة والتابعون وقل[٢] فيهم الخوف والرجاء والصبر والشكر وكثر فيهم الخوض والجدل والخصومة والمراء وظهر الاختلاف وقامت الدعاة في طرق الضلال وصارت الحقيقة خصوصا والجهالة عموما . ثم جاء القرن الرابع فاضطرب الامر في الحق واستوحشت طرق الهداية للسالكين لها وكثر النفاق . وخرج الناس من الدين افواجا واستبدلوا الحق بالباطل والاخرة بالدنيا وكثر الدهان وغلب المنكر وقهر اولياء الله وعلت اصوات اهل الخبايث واستخفى المومن وذهب التواصل وعدمت النصيحة وقلت الالفة وفسدت النيات في ذات الله وتصالحوا على الحب والفجور وسفك الدماء بغير حق . وذهب الحياء في اخذ الحرام وصارت الهيبة في اهل الفجور ولم يبق على ظهر الارض متحقق بالتفرد ولا متحل بالحقيقة الا والبلاء يطلبه والفتنة تلحقه . غير ان في الناس بقايا من اهل التصديق بالقدرة متحققين بالايمان[٣] بالقدر . فاذا حل دخول القرن الخامس اشتد البلاء باهل الاسلام خاصة فيما بينهم فكان الكل على[٤] الكل في القريب والبعيد والمولي[٥] والمولى عليهم . بعضهم لبعض فتنة وبعضهم على بعض نقمة بفساد دينهم ودنياهم وعيشهم[٦] . فلا راحة لمن بقي من اهل الحقيقة غير انهم يحجبون عن العامة ويسترون عن المدعين . فاذا دخل القرن السادس ذهب اهل التصديق وبقي اهل الانكار وسلب الناس عقل البصيرة وبقي[٧] عقل الحجة عليهم وذهب الاسلام فلم يبق الا اسمه وذهب العمل بالقرآن فلم يبقَ الا رسمه . ثم العجب العجب اهل القرن السابع وهم اشرار الناس على شكلهم تاتي الازفة تتبعها الرادفة » .

---

١) ر : لمعاني ‖ ٢) ر : قـل ‖ ٣) إ : الايمان ‖ ٤) ف س : عن ؛ س خ : على ‖ ٥) ر : والمولى ‖ ٦) ر : وعيشتهم ‖ ٧) ف ق ر س : ويبقى ‖

انتهى كلامه وقد احسن فيه ما شاء. ولم يات بمثله احد من العلماء. وفيا ذكرناه منه كفاية وغنى.

ولنقتصر على هذا القدر من الكلام في هذا المقام فقد ذهب بنا كل مذهب وتشعب علينا كل مشعب والكلام فيه محتمل لاكثر من هذا اذ ما من فصل الا وهو مقتضي لأدلة حذفناها ولا قول الا وهو محتاج الى صلة قطعناها طلبا للاختصار وعدولا عن الاكثار. وانما فعلناه لكم لكونكم طلبتم في كتابكم منا المبالغة في الموعظة والنصيحة والتوصية بالوصايا الصحيحة فرأينا من حقوقكم التي لا نقدر على توفيتها لن تبلغ في تلكم المطالب الى غايتها ونذكرها في معرض الكلام على النازلة الواقعة لنضع فيها البيان مواضعه ونسوقها سياقة يعترف بصحتها كل لبيب وتعم فايدتها كل مريد منيب — مع اني معترف بالتقصير في العمل بما وصفته متصف بنقيض ما رسمته وشرحته لا ادلي في ذلك بحجة ولا اسلك الا على غير محجة :

أَدُلُّ عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَمَا أَهْتَدِي بِالدَّلِيلِ[1]
وَاصِفُ الدَّوَاءَ لِداءٍ[2] أَنَا بِهِ عَلِيل

وحاجتي عند من رأى هذا الكتاب من الاوليا. والاحباب ان يجتهد لي في الدعاء بتيسير التوبة وتكفير الحوبة. وان يبلغني من الطاعة املي وان يختم بالخير عملي. فليس ذلك بعزيز ولا بعيد على المبدي والمعيد الفعال لما يريد. وليكن هذا آخره. والحمد لربنا عز وجل والصلاة على نبيه المرسل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

[الرسالة العاشرة]

كتاب[3] تضمن الجواب عن مسئلة رجل معلم للاولاد وذكر امور مفيدة يعتمدها في تعليمهم وكيف تندفع الوسوسة عنه في ذلك

الحمد لله[4] اسلم عليكم كثيرا واعرفكم بانه وصلتني منكم براءة

١) ر س : به الدليل ‖ ٢) إ : الذي ‖ ٣) س : وله ايضا رضي الله عنه كتاب تضمن امورا مفيدة يعتمدها معلم الاولاد في تعليمه وكيف تندفع عنه الوسوسة في ذلك ‖ ٤) ف ر س : + وحده ‖

وانتم تطلبون فيها نصيحة تتضمن الدلالة على وجه الخلاص مما انتم بسبيله مما اعتراكم من الحيرة والوسوسة وعدم الرقة وغلبتها عليكم. فاعلم ان هذه الاحوال امراض قلبية حدثت عن اسباب موجبة لها. فلا بد من معرفة اسبابها وطريق علاجها.

اما الحيرة التي ذكرتم انها تعتريكم بسبب الاولاد وضيق اخلاقكم في ذلك فسببه غفلتكم عما انتم عليه من النعم الظاهرة والباطنة وخفاؤها عليكم. وعلاجه حسن التيقظ والتذكر لها ويكفيكم في ذلك معرفة امور ثلاثة وتقريرها في كل حين على انفسكم حتى لا يعزب تذكرها عنكم:

الامر الاول معرفة النعمة العظيمة عليك في اقامة الحق تعالى اياك في التعليم وجعله فيك اهلية لهذا المنصب العظيم من غير استحقاق منك ولا وسيلة سابقة لك وهي درجة الانبياء[1] والعلماء. وتستعين على تحصيل هذه المعرفة بمطالعة ما ورد في فضل التعليم من الاخبار والاثار والبحث عنها في مواطنها فهي كثيرة جدا. فتستفيد بهذه المعرفة مزيد[2] تواضع لربك وحياء منه[3] يحملك على اتباع مرضاته في جميع احوالك.

الامر الثاني معرفة النعمة الجزيلة في توفيقك للتعرض لما فيه قهر نفسك ومخالفة حظك بسبب التعليم: وذلك من قبل استغراق اوقاتك فيه وعدم تفرغك لما فيه وجود هواك ومخالفة مولاك ومكابدة اخلاق الصبيان ومداراتهم واحتمالهم والقيام بتزنة نصحهم وتعليمهم الى غير ذلك من وظايف المعلمين اللازمة لهم. وفي ذلك كله فوايد جليلة[4] لا غنى لكل سالك لطريق الاخرة عن تعاطي مثلها لتتهذب نفسه وترتاض خلقه. وقد ساقها ربك اليك على وجه سديد وطريق حميد. فتستفيد بهذه المعرفة حالا تحملك على حسن الصبر والقيام بواجب الشكر.

الامر الثالث معرفة النعمة السابقة فيما تهيأ لك بسببه من مرافق الدنيا واستغنائك بذلك عن الدخول في المداخل المذمومة والتعرض لانواع الفتن والمحن التي يتصدى لها طلاب الدنيا في انواع اكتساباتهم وتسبباتهم

١) ف ر س : + عليهم السلام ‖ ٢) ا : فريد ‖ ٣) ا : منك ‖ ٤) س : جزيلة ؛ خ : جليلة ‖

لا سيما الطلبة . فتستفيد بهذه المعرفة حالا تحملكم على الرضى بالمقدور والقناعة بالميسور .

فاذا احكمت معرفة هذه الانواع الثلاثة من النعم وواظبت[1] على تذكارها وتكرارها اعتبك ذلك باذن ربنا عز وجل فرجا واستبشارا[2] لنعم ربك واندفع عنك بسبب ذلك[3] ضيق الصدر وسوء الخُلق . وقرت[4] عينيك بحالك وقدرت بعد ذلك على اقامة حق ربك مع من تعلمه بالرافة[5] والرحمة والشفقة والنصيحة والرفق وحسن السياسة والمدارات الى غير ذلك من الاحوال النافعة للمعلم والمتعلم . وربنا عز وجل ولي الهداية لك ولهم من قبل ومن بعد .

واكد ما ينبغي للمعلم ان تكون همته كلها مصروفة الى الرغبة الى الرب تعالى في هدايتهم وتوفيقهم وان يعتقد انه انفع له ولهم من كل ما يتعاطاه في حال تعليمهم من فعل او قول . فاعلم هذا[6] كله واعمل به تجد بركته ان شاء ربنا عز وجل .

واما الوسوسة التي تعتريك في جميع احوالك فسببها الجهل والغفلة ودواؤها بالعلم والذكر . ونعني بالعلم والذكر العلم بالحق تعالى والذكر له . واستعن على تحصيلها[7] بمجالسة الصالحين ومخالطة المتقين وموالاة الذكر بالقلب واللسان لرب العالمين فلا دواء لها غير هذا .

واما عدم الرقة التي تعتريكم في الصلاة والتلاوة فذلك نوع قسوة وسببها احد امرين او كلاهما : اما ارتكاب ذنب او ميل الى عاجل حظ . وعلى حسب هذين المعنيين في الكثرة والقلة والضعف والقوة تكون القسوة وعدم الرقة . ودواؤها التوبة الصادقة والزهد التام ومحاسبة النفس ومراقبة الخواطر وسد مداخل الشيطان الى القلب .

وليكن لك مع هذا ورد من الاستغفار بالاسحار وفي ساير الاوقات المرجو فيها فضل الملك الغفار . فذلك مصقلة للقلوب وممحاة للذنوب ومرضاة لعلام الغيوب .

---

١) إ : وواضبت ‖ ٢) إ ق : خرج واستبشار ‖ ٣) س : بذلك ؛ خ : بسبب ذلك ‖ ٤) إ قدر : وقر ‖ ٥) ف ق ر س : – بالرافة ‖ ٦) س : ذلك ‖ ٧) ف ر س : تحصيلها ؛ ف خ : تحصيلها ؛ ف خ : تحصيلها ‖

وليكن لك ايضاً كيفية من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم[١] وورد منها فذلك من افضل ما يتوسل[٢] به المتوسلون الى مطالبهم.

وربنا عز وجل ولي التوفيق والهداية وهو حسبنا ونعم الحسيب[٣]. فهذا[٤] ما اردنا ذكره على حسب ما طلبتموه[٥] والسلام عليكم والسلام عليكم والرحمة والبركة .

[الرسالة الحادية عشرة]

كتاب[٦] تضمن الجواب فيما يأخذه المعلم من الاجرة على تعليم الاولاد وكيف تندفع الوسوسة عنه في ذلك

الحمد لله وحده . اسلم عليكم واعرفكم بانه وصلنا كتابكم وانتم تذكرون فيه حالكم مع الاولاد وكراهتكم لها إما لما[٧] ذكرتم من انكم خفتم على انفسكم من التفريط لرؤيتكم عدم الخلاص في ذلك وإما لما خفتم من اقتحام الشبهات والعمل على الخلاف فيما تأخذونه من الاجرة من بعضهم وطلبتم فيه منا التعريف بما يظهر لنا في ذلك فاقول :

اما الحال الاولى[٨] فانتم بها اعلم لان الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . فانظروا في ذلك بعين البصيرة وتأملوا حالكم فان تحققتم وقوع اسباب ذلك ولم تقدروا على القيام بالواجب فيه فاعملوا على حسب ذلك واتركوا التعليم راسا حتى يرزقكم ربكم قوة تقدرون بها على ان تخلصوا اعمالكم من الآفات القادحة فيها . وان قدرتم على مجاهدة انفسكم في ذلك فحسن ولكم الاجر الجزيل فيه . وان كان ذلك وسوسة منكم لا تستند الى تحقيق فارفضوها جهدكم قبل ان تستولي عليكم فان متابعة الوساوس[٩] والوقوف مع الخيالات مفسدة للدين والعقل والمعيشة . وهذا امر مجرب وعلى الجملة فحالكم في هذا الامر لا يخفى عليكم .

---

١) ف س : على النبي عليه الصلاة والسلام || ٢) [كذا . ولعله « يتوصل »] || ٣) ق : الوكيل || ٤) ا : – فهذا || ٥) ر : ذكرتموه || ٦) س : وله ايضاً رضي الله عنه كتاب تضمن ما يأخذه المعلم من الاجرة على تعليم الاولاد وكيفية اندفاع الوسوسة || ٧) ا : ما || ٨) ق : الاول || ٩) ف ز : الوسواس ؛ ف خ : الوساوس ||

واما الخال الثانية وهي خوفكم من اقتحام الشبهات والعمل على الخلاف والتباه. الامر بكم الى ان حدثتم انفسكم بمفارقة اهلكم[١] بسبب ذلك فلا اشك في ان ذلك وسوسة ولعل عدوكم اراد ان يوقفكم بها فيما هو اعظم ضررا من ذلك. لان ما حدثتم به انفسكم لم يثبت عن احد من سلف[٢] وخلف من اهل العلم والدين انه فعله او امر به تحصيلا لذلك الغرض الذي رمتموه. فعدم ثبوت ذلك عنهم دليل على انه لا خير فيه بل الثابت عنهم انهم نصحوا لربهم عز وجل في انفسهم وفي غيرهم وقاموا بحقه فيها في حال ضروراتهم[٣] واختيارهم ووفوا واجب الشرع وسلكوا سبيل الورع. فان اردتم الاقتداء بهم وسلوك مسالكهم فخذوا ما تهيأ لكم من الحلال المتفق عليه في المذهب واجعلوه في مهماتكم المعتبرة شرعا. فان وفى بذلك ورزقتم قناعة واقتصارا عليه وعلمتم قدر النعمة عليكم به فذلك غاية الكمال في حقكم. والا فلا جناح عليكم في[٤] ان تأخذوا كفايتكم مما اختلفوا فيه سالكين في ذلك سبيل التحري والاحتياط مجانبين للتوسع والرفاهية آخذين له على وجه المسكنة والحاجة. فاذا فعلتم ذلك خرجتم عن شبهة الخلاف ولم تأخذوا بواحد من الاقوال[٥] الثلاثة.

فان جمحت بكم نفوسكم الى مقتضى العادات ودعتكم الى التوسع في الشهوات والتقحم في اكتساب الشبهات والاخذ بالرخص في عموم الحالات لا على الوجه الذي ذكرناه فانتم ملومون ومذمومون لا على عدم فراقكم الاهل[٦] ولا[٧] على العمل على اختلاف العلماء لكن على ترك مجاهدتكم لانفسكم واسترسالكم على مقتضيات طباعكم. ومن ههنا تعلم انه لا يؤتى على الانسان الا من قبل نفسه. فمن رزقه ربه توفيقا يقدر به على مجاهدتها والفرار من دواعيها ومرن على ذلك وتمكن فيه كانت افعاله واحواله جارية على السداد محفوظة من الفساد. وهذا هو الاصل الذي تجب مراعاته. فيكون العمل بذلك اهم عليكم من الوسوسة في الاخذ بالخلاف الى ان وجدتم من الاسباب المتفق

١) س: اهليكم ‖ ٢) إ: احدهم سلف ‖ ٣) ف: ضرورتهم ‖ ٤) ف: — في ‖
٥) إ: الاموال ‖ ٦) ف ق ر س: للاهل ‖ ٧) ق: — ولا ‖

عليها ما يفي بقوتكم اما على انفراده او باضافته الى مثله مما ينض[1] لكم في التعليم على مقتضى المذهب فلا عذر لكم اذ ذاك في الاخذ بالخلاف على مذهب الورعين. وقد يحكم ذلك على غير مذهبهم[2]. وهذا ما ظهر لي في مسألتكم وربنا عز وجل هو[3] ولي التوفيق لنا ولكم الى ما يحبه ويرضاه لا رب غيره ولا معبود سواه والسلام عليكم.

[الرسالة الثانية عشرة]

كتاب[4] تضمن شيئاً من الكلام على رواية الحديث وترويته[5] وما شرط ذلك[6]. وفيه زيادات اخر[7] مفيدة

الحمد لله وحده. اسلم عليكم واعرفكم بانه وصلنا كتابكم وتعرفنا منه ما تضمنه من السؤال عن رواية القرآن والحديث عمن اتصف بصفات ذكرتموها فيه وترويتها[8] على ذلك الوجه هل يجوز ذلك[9] ام لا.

فاعلم يا اخي ان هاتين المسئلتين من المسايل الفقهية وكذلك ما ذكرتموه في البراءة التي كنتم رفعتموها لي من السؤال عما يحتاج اليه معلم الصبيان وكيف يكون حاله معهم على اختلاف احوالهم في النباهة والبلادة وما ذكرتموه فيها عن ابن العريف في اخذ الاجرة على تعليمهم مع كونه لم يقصدها — كل ذلك مسايل فقهية لم ابتل بها فيما تقدم حتى يقع مني من البحث ومطالعة الكتب وسؤال العلماء ما يحصل لي من علم ذلك واتعرف من احكامه ما يحتاج اليه. ولا ايضا عندي الآن من اتساع الخاطر وقوته ما يحملني على استيناف[10] النظر في ذلك وانهايه الى غايته. وفي بلدكم من تأخذون في ذلك معه وعنده علمه. وبعض تلك المسايل انتم غير مضطرين[11] اليها.

فرأيت مع هذا كله الاخذ في ذلك من التكلف المنهى عنه ومن الاشتغال بما لا يعني بالنسبة الى الحال والوقت فاقبلوا العذر في ذلك. على ان الذي اراه

---

١) إ : ينض || ٢) إ : مذهبكم || ٣) ف و ر س : – هو || ٤) س : ومنه ايضا رضي الله عنه ونفع به كتاب. . . || ٥) س : – وترويته ؛ خ : وترويته || ٦) س : + في || ٧) س : – اخر || ٨) ف : وترويتها . ط : لعله «وترويتها» بضمير التانية || ٩) ر : – ذلك || ١٠) س : استيقاء || ١١) إ : مضطرون ||

واعتقده في مسئلة الرواية ان الراوي والمروي عنه اذا لم يطلبا بعملها ذلك حظا عاجلا وكان المروى عنه ضابطا لما يرويه ويرويه متصفا بالعدالة التي ذكرها اهل الحديث فان عملها في ذلك مبرور وسعيها مشكور لكونها قاما بفرض من فروض الكفاية. اذ الاسناد من الدين حسبما ذكره العلماء. وان اختل احد تلك الاوصاف كان عملها باطلا لفقد[1] الاخلاص في ذلك وعدم سلوك سبيل الصواب فيه. وهو شأن اكثر قراء هذا الزمان الا من عصم الله[2].

واما باقي المسايل التي ذكرتموها من غير المسايل الفقهية فانها تنقسم الى قسمين: احدهما سؤال عن اشياء ما هي كقولكم: وان تحد لي هذه الامور المهلكة كالكبر والرياء والعجب والغضب والحقد والحسد وغير ذلك — والثاني سؤالكم عما تعلمع به احوالكم في دينكم كقولكم: اريد منكم ان توصوني[3] بما يكون فيه صلاح ديني. وكقولكم: وان تنبهني على[4] امور مهمات في الدين مما يتعلق بظاهر العبد وباطنه وان تنبهني على افضل الاعمال الصالحة[5] بعد الواجبات.

اما الاول فقد اغنانا عن الجواب فيه[6] من تقدمنا من العلماء. وخصوصا المحاسبي فطالعوه وتأملوه تجدوا الشفاء فيه.

واما الثاني فلا يستقيم الجواب فيه الا بالامور الجملية والامور الجملية معلومة لكم فلا يفي ذكرها بغرضكم — واما الامور التفصيلية فانها مبنية على معرفتي باحوالكم كلها في ظاهركم وباطنكم. ولا سبيل لي[7] الى تعرف ذلك الا من جهتكم اما باعلام منكم او بمخالطة طويلة مني لكم ولم يقع شيء من ذلك فكيف يستقيم الجواب المقنع النافع مع هذا بل يكون الاخذ في ذلك رميا في عماية. بل الذي ينصح لنفسه ويسأل عما يضطر اليه ينبغي له ان يذكر حاله فيما بينه وبين ربه اما من اعتقاد او معاملة ويسأل عن وجه صلاحية ذلك لتقرب الى الرب تبارك وتعلى ويبين ذلك بيانا شافيا حتى يكون المسؤول على جلية من امره فيقع الجواب في ذلك كله نافعا للسايل والمسؤول كما فعلتموه في تلك البراءة التي كنتم كتبتموها لي[8] اول مرة وكما

١) ف: لفقدان || ٢) ف ق ر س: — الله || ٣) ر: تصوني || ٤) ر س: عن || ٥) ر س: الصالحات || ٦) ف ق ر: عنه || ٧) ا: — لي || ٨) ف: في ||

كان يفعل اخونا محمد بن ادية رحمة ربنا عليه ورضوانه فيما كان يكتب به اليّ.

واما سوالكم من اي كتاب تقرءونه في التصوف فالذي اقول لكم ان ذلك الكتاب الذي عندكم لابن عطا. وهو « كتاب التنوير » محتو على جميع ما تضمنته[1] كتب التصوف المطولة والمختصرة مع ما اشتمل عليه من زيادة البيان واختصار الالفاظ. والمسلك الذي سلكه فيه[2] مسلك توحيدي لا يسع احدا انكاره ولا يدع للمتحقق[3] به صفة حميدة الا اكسبه اياها ولا صفة ذميمة الا ازالها عنه وطهره منها. وانتم اذا اشتغلتم بتفهمه والعمل بما فيه بآن لكم ما قلناه عيانا. وسيجتمع لكم مع ما سألتم عنه من الامور الدينية امور اخر نافعة مفيدة. فان اضفتم الى ذلك ان تحصلوا ما له من الكلمات الحكمية المشهورة عنه الموجودة بايدى الناس واشتغلتم بتحفظها وتفهمها اغناكم ذلك عن كثير مما سودت به الاوراق وشاع ذكره[4] في جميع الافاق :

خُذْ مَـا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ
فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

فهذا كله ما اردنا ان نذكره لكم . وربنا عز وجل ولي التوفيق لنا ولكم الى ما يحبه ويرضاه . والسلام عليكم وعلى جميع اصحابنا والرحمة والبركة .

[الرسالة الثالثة عشرة]

كتاب[5] تضمن التنبيه على كلام لسيدي[6] ابي الحسن الشاذلي[7] في صفة قاري[8] الحزب الكبير له[9] . والله الموفق[10]

الحمد لله . وبعد فقد كان[11] بلغني كتاب منكم وانتم تذكرون فيه انكم عازمون على قراءة الحزب الكبير .

فامضوا ذلك العزم واعلموا ان ذلك من توفيق الله لكم ولا يعدنكم

١) ف : تضمنه ‖ ٢) ر : — فيه ‖ ٣) ا : المتحقق ‖ ٤) ر : — ذكره ‖ ٥) س : وله ايضا رضي الله عنه كتاب ‖ ٦) س : سيدي ‖ ٧) س : + رضي الله عنه ‖ ٨) ف خ : قراءة ‖ ٩) ر : — له ‖ ١٠) ف ق ر س : — والله الموفق ‖ ١١) ف س : — كان ؛ س خ : كان ‖

عن ذلك ما توهمتموه من معنى ما روي عن الشيخ رضي الله عنه من قوله : من قرأ هذا الحزب فله ما لنا وعليه ما علينا — فانه توهم باطل . كيف وانما قصد بذلك التحريض عليه وصرف الهمة اليه والاخذ فيه بالحزم[١] والعزم . ويدل على ذلك باقي الكلام من قوله : ودخل في شفاعة جدي رسول الله[٢] صلى الله عليه وسلم . وانما معناه كأنه يقول: من قرأه بنية صالحة ورجاء صادق وكان محبا في طريقتنا التي لشتمل عليها هذا الحزب حريصا على الاتصاف بصفات[٣] الاولياء المشار فيه اليها فقد حصل على غاية الرجاء في بلوغ امله من الوصول الى رتبة الولاية الخاصة بنا ودخل في حزبنا وشملته رعايتنا وكان له ما لنا من التقريب[٤] والاكرام وعليه ما علينا من الانقياد والاستسلام . واذا كان ما من الله تعالى له السبقية بالرتبة[٥] والاولية[٦] بالوجود بخلاف ما من العبد كان السابق علة في وجود اللاحق. والمعلول تبع لعلته في مقتضى اللطف والعنف . فان سبق للعبد قدم الصدق المقتضي وجود اللطف المعني بقوله : له ما لنا — كانت اعماله جارية على سنن الحق المعبر عنه بقوله : وعليه ما علينا — وكل ذلك بتسهيل وتيسير لا[٧] تعمل فيه من العبد ولا تكلف . وهذا هو غاية العطاء ومنتهى الجزاء والا فعلى العكس . فحاصل هذا ان قوله « له ما لنا » عبارة عن نهاية الكرامة والبر ومن جملة ذلك الهادية والتسديد والاعانة والتأييد وكلها علل موجبة لوجود[٨] ما ترتب عليها من معنى قوله :« وعليه ما علينا » اي من القيام باحكام العبد والكون مع الله تعالى على ما يريد بانشراح صدر وتيسير امر . وليس في هذا يا اخي ما ينفكم ويصدكم عما رمتموه بل فيه ما يغريكم به ويحضكم عليه ان شاء الله تعالى .

وهذا القدر من الكلام المختصر كاف في تفهيم[٩] ما ذكره الشيخ رضي الله عنه من الكلام المروى عنه . وما ذكرتموه عن بعض اصحابكم من قوله : ما لنا من الحرمة وعليه ما علينا من الرحمة — فعبارته في ذلك مليحة رشيقة قريبة من معنى ما ذكرناه. الا انها خالية عن[١٠] التحقيق الذي بيناه. وبالله التوفيق.

١) ر : الحزم ‖ ٢) ف ق ر : — رسول الله ‖ ٣) س : بصفة . خ : بصفات ‖ ٤) إ : التقرب ‖ ٥) ف ق ر س : بالمرتبة ‖ ٦) ر : والاولوية ‖ ٧) ر : ولا ‖ ٨) إ : لوجوب ‖ ٩) ر س : تفهم ‖ ١٠) س : من ‖

[الرسالة الرابعة عشرة]

جواب[1] سؤال رجل تشوش من جهة السبب ومنعه ذلك من الوصول الى غاية[2] الارب

الحمد لله[3] . اما بعد فقد كان[4] وصلني كتابكم وذكرتم فيه تشوش[5] حالكم من جهة السبب وانكم لم توافقوا على تركه وانكم[6] منتظرون لما يعرز من الغيب — وقد علمت جميع ذلك وتحققته .

والذي آمركم به ان تجعلوا الآخرة نصب اعينكم وتنبذوا الدنيا وراء ظهوركم[7] . ثم تشتغلوا بالعمل بما يوافق هذه[8] الحال . فان يسر لكم سبب يسلم فيه دينكم فخذوا منه ما تقيمون[9] به اودكم والا فلا يهولنكم تعذره عليكم . وايقنوا وتحققوا ان من ترك لربه شيئا فسيعوضه منه خيرا مع سلامة الدين وغنيمة الطاعة لرب العالمين . واعتبروا في ذلك بقصة صاحب الزرع والطحين والحمار .

فقد حكي[10] ان بعض الصالحين سيل ما سبب توبتك فقال : اني كنت رجلا دهقانا[11] . فاجتمع علي اشغال ليلة من الليالي كنت احتاج ان اسقي زرعا كان لي وكنت حملت حنطة الى الطاحونة فوثب حماري وضل . فقلت : ان اشتغلت بطلب الحمار فات سقي الزرع وان اشتغلت بسقي[12] الزرع ضاع الطحين[13] والحمار . وكان ذلك ليلة الجمعة وبين قريتي وبين الجامع مسافة بعيدة فقلت اترك هذه الامور كلها وامضي الى موضع الجمعة لادرك غدا صلاة الجمعة . فمضيت وصليت الجمعة[14] . فلما انصرفت اجتزت[15] بالزرع فاذا هو قد سقي فقلت من سقى هذا الزرع فقيل لي[16] ان جارك اراد ان يسقي زرعه فغلبته عيناه وانفتق السد[17] فدخل الماء زرعك . فلما وافيت باب الدار فاذا

---

١) س: وله ايضا رضي الله عنه جواب ‖ ٢) إ : — غاية ‖ ٣) ف ر س : + وحده ‖ ٤) س : — كان ‖ ٥) ق : تشويش ‖ ٦) إ : وانتم ‖ ٧) ق : ظهركم ‖ ٨) ق : هذا ‖ ٩) ف : تقيموا ‖ ١٠) س : عن بعض الصالحين انه سيل . ط : كذا . في الاصل : « ان بعض الصالحين سيل » ‖ ١١) إ : دهاقا ‖ ١٢) ف ق ر س : بالسقي (— الزرع) ‖ ١٣) إ : العجين ‖ ١٤) ف ق ر س : — الجمعة ‖ ١٥) إ : وجزت ‖ ١٦) ق ر س : لي ‖ ١٧) ف ق ر : السكر ؛ س خ : البكر ‖

بالحمار على المعلف فقلت من رد الحمار فقيل صال عليه الذيب فاتجا الى البيت. فلما دخلت الى[1] الدار اذا انا بالدقيق موضوع هنالك فقلت كيف سبب ذلك فقالوا ان الصحاب طحن هذا بالغلط . فلما علم انه لك رده الى المنزل . فقلت ما اصدق من قيل : من كان لله كان الله له ومن اصلح ما بينه وبين الله اصلح الله امره . فتركت الدنيا وتبت .

واعلم ان ما نصيبك في هذه الدار من صنوف المحن وانواع الغم والحزن طرقات الى جزيل الفوايد ووسايل الى رفيع المقاصد لا يعرف قدرها الا اهل الهمم العالية والقلوب الطاهرة الزكيـة[2] . فليكن فرحكم بنزول المكاره اشد من فرحكم بحصول المحاب . فقد حكي عن عطاء السلمي انه بقي سبعة ايام لم يذق شيئا من الطعام ولم يقدر على شي. فسر قلبه بذلك غاية السرور وقال : يا رب ان لم تطعمني ثلاثة ايام اخر لاصلين لـك الف ركعة . وقيل ان فتحا الموصلي رجع ليلة الى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا فاخذ يحمد ربه ويتضرع اليه ويقول : الهي لاي[3] شي. وباي وسيلة واستحقاق عاملتني بما تعامل به اولياءك.

ففي هذه الحكايات عبرة للمتبصرين وبلاغ للعابدين . وفقنا ربنا[4] لذلك .

[الرسالة الخامسة عشرة]

وصية لجناح الهياكل مريد طالب للمزيد من الغني الحميد

الحمد لله وحده . من اراد الاستقامة على سبيل الحق في دينـه والتحصن من عدوه والتخلص من وساوس النفوس وضيقها وتقلبها والحصول على شرح الصدر فليصحح مقام الادب مع الله[5] ظاهرا وباطنا في جميع احواله . فذلك هو الشكر الموجب للمزيد . وينبني ذلك على اصلين : معرفته بعظمة ربه وكبريايه واتصافه بالصفات العلية والنعوت القدسية وعلمه بخسة نفسه وضعتها وعيوبهـا

١) ف ق ر س : – الى ‖ ٢) ق ر س : الزاكية ‖ ٣) س خ : باي ‖ ٤) ق : + عز وجل ‖ ٥) ف ق ر س : + تعالى ‖

وآفاتها . فاذا احاط علما بهذين الاصلين نظر الى نفسه والى ما اجرى الحق تعالى عليه من الافعال والاقوال وما صرفه فيه من الاحوال فيرى حينئذ من لطف الحق تعالى به ورحمته وعنايته وفضله ما لا مطمح لاحد في ادراكه وفهمه . فيوجب ذلك له محبة وحياء يحملانه على الشكر للحق تعالى بشهود النعم منه وحسن الادب معه . فاذا رأى نفسه على طاعة فرح بمنة ربه عليه بها من غير استحقاق ولا وسيلة . وكم من شخص لم يعطها ! وليستعمل حينئذ حسن الادب في تحسينها ونفي الافات عنها واخلاصه فيها لربه عز وجل .

فيكون حينئذ بهذه الرؤية والادب افضل ممن استغرق اوقاته في الطاعات وانواع العبادات مع فقدان ذلك . وكذلك ان رأى نفسه بحال نعمة من صحة بدن او نيل رزق — وان قل — فليفرح بذلك وليشكر ربه عليه لعلمه انه لا يستاهل ذلك ولا يليق به . وليستعمل حينئذ حسن الادب في الاستعانة بها[1] على طاعة ربه عز وجل ولا يستعملها[2] في معصيته . وكم من شخص مبتلى بمرض او فقر يتمنى ذلك ولا يجده !

وكذلك ان ابتلي بفقر او اصيب بمرض او مصيبة من مصايب الدنيا فليفرح بذلك لانه[3] سلك به[4] مسلك الاولياء والصالحين . وليفرح بمنة ربه عز وجل في ان لم تكن اكثر من ذلك كما ابتلي[5] طوايف[6] من الناس . وليستعمل حينئذ حسن الادب في الصبر والرضى ونفي الجزع والشكوى والدعاء الى الله تعالى في سعة الرزق وكشف الضر وسؤال العافية في الدين والدنيا والآخرة . وان امكنه التسبب لاكتساب ما يغنيه والتطبب لعويه من دايه[7] فليفعل ذلك فهو من حسن الادب . وليشكر الله تعالى على تمكينه من ذلك واذنه له فيه .

وكذلك ان ابتلي بذنب او غفلة او سوء ادب فلا يغفل عن اللطف وخفي المنة بذلك . فقد يكون ذلك سببا لخوفه ونفي عجبه والتجايه الى ربه كما ورد في الخبر في قوله له : لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو اشد من ذلك :

١) ا : — بها || ٢) ا : يستعملها || ٣) ر : فانه || ٤) ا : بها || ٥) ف ق ر س : + به || ٦) ف : طائفة || ٧) ا : ذلك || ٨) ا : — في قوله

العجب العجب . وكم من شخص مرتكب لكبائر[1] مستحل لها فرح بها . وليستعمل حينئذ حسن الادب في المبادرة الى التوبة وتذكر الخوف وكثرة الاستغفار والدعاء والبكاء . وكذلك ان كان على مذهب امام من ائمة الدين مجمع[2] على امامته وهو يجد في الحال من يأخذه[3] عنه ممن تفقه فيه من اهل الدين وقد اخذه عن شيوخه وشيوخه عن شيوخهم الى ان ينتهي الى ذلك الامام. فليفرح بذلك وليشكر الله عليه . وكم من شخص قد[4] قلد مبتدعا او ابتدع هو من تلقاء نفسه فهلك بذلك. وليستعمل حسن الادب معه في توقيره واتباعه في كل ورد وصدر الا ان رأى في مذهب[5] غيره من الائمة المجمع على امامتهم ما يقتضي[6] احتياطا ان قوى عليه او يقتضي[7] رخصة ان احتاج اليها ولم يكن في مذهب امامه انكار على من فعل ذلك فليفعله ولا يسقطه ذلك عن درجة الادب.

وكذلك ان ظفر بشيخ من شيوخ الصوفية سالك سبيل السنة فليفرح بذلك وليشكر الله عليه . وكم من شخص لعبت به ايدي الضالين المبتدعين فهلك بذلك . وليستعمل حينئذ حسن الادب في الانقياد له في اوامره وترك مخالفته . وان لم يكتمه شيئا من اسراره وان لم ينتقل عنه الى غيره.

وكذلك ان كان له صاحب او اخ يسلم معه دينه ويجد معه مرافق في دنياه — ويدخل في هذا الزوج والزوجة — فليفرح بذلك وليشكر الله عليه . وكم من شخص مبتلي بصاحب يخسر محد دينه ودنياه ولا يجد انفكاكا عنه . وليستعمل حينئذ[8] حسن الادب في القيام بحق[9] صحبته والوفاء بعقد[10] اخوته.

وكذلك ان اقيم في سبب يجد منه كفايته فليفرح بذلك وليشكر الله . وكم من شخص مبتلى بالالتجاء الى الناس وعاجز[11] عن السبب غير راض ولا صابر . وليستعمل حينئذ حسن الادب في نصح المسلمين بذلك وترك الغش واجتناب جميع مناهي الشرع التي يتعرض لها بسبب ذلك . وان كان في عمل من اعمال البر كتعليم القرآن وغيره[12] فليحتسب مع ذلك ثوابه وليترفق في

١) ر : لكبائر ٢) ق : مجتمع || ٣) ر : ياخذ || ٤) ف : — قد ||
٥) ف ر س : مذاهب || ٦) ق : تقتضي || ٧) إ : — يقتضي || ٨) ر : — حينئذ ||
٩) س : بحسن ؛ خ : بحق || ١٠) س : بحق ؛ خ : بعقد || ١١) ق : او عاجزا ؛
ر : او عاجز || ١٢) ف ق ر س : او غيره ||

تعليمه ما امكنه ولا يجفو على متعلم ولا يظلمه . وليراقب ربه في ذلك .

وكذلك ان سمع بمثل هذه النصيحة او رآها مكتوبة فليشكر ربه على ذلك وليفرح بها . وكم من شخص مصحوب بالغفلة والسهو او مستنصح ولا يجد ناصحا . وليستعمل حينئذ حسن الادب في امتثالها والوقوف على حدودها وبذلها لاهلها . وملاك ذلك صدق الافتقار الى الله تعالى والضراعة اليه في ان يوفقه لذلك ويعينه عليه . فمن اعطي ذلك فليفرح به[1] وليشكر الله تعالى عليه. وكم من شخص مبتلى برؤية نفسه واعتماده على عقله وحيلته[2] ! وليستعمل حينئذ حسن الادب في اتهام نفسه في تصحيح الافتقار الذي ذكرناه .

وهذا الذي ذكرناه من اوله الى آخره داخل في معنى ما ورد في الخبر الصحيح[3] من قوله عليه السلام : انظروا الى ما هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر الا تزدروا نعمة الله عليكم . وبالله التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه .

[الرسالة السادسة عشرة]

جواب[4] مسئلة سلوك طريق الصوفية هل يصح ذلك بالكتب الموضوعة فيه او لا بد من الشيخ – وفيه ذكر الطريق الموصل الى الله[5] .

باسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وآله[6] . من محمد بن عباد لطف الله له الى اخي ابراهيم الشاطبي وصل الله تعالى حفظه واجزل من خير الدارين حظه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته[7]. اما بعد[8] فقد بلغني كتابكم وتعرفت منه ما طلبتم . وقد تصفحت كل واحد من الكتابين اللذين بعثتم بهما الى سيدي ابي العباس القباب[9] وعلمت مضمنهما . ولا يمكنني[10] ان اتكلم على جميع فصولها بتصحيح او ابطال لان الكلام فيها قد طال وتشعب وذهب

١) ف ق ر س: بذلك || ٢) ر س: وحيله: س خ: وحيلته || ٣) س: في الخبر الصحيح ||
٤) س خ : وله ايضا رضي الله عنه جواب سؤال وهو : طريق الصوفية هل يصح بالكتب ام لا . وفيه ذكر الطريق الموصلة اليه || ٥) ق ر س: الموصل اليه || ٦) إ خ: – باسم . . . وآله || ٧) [كذا في إ خ س] : إ ف ق ر : – باسم الله . . . وبركاته ||
٨) إ ف ق ر : الحمد لله وحده . اما بعد || ٩) ف ق ر س : – الى . . . القباب ||
١٠) س خ : ولا يسعني ||

كل مذهب وانا في غاية العجز عن ذلك. ولا يمكنني ايضاً ان لا اتكلم بشي. في هذا الامر وان كان ذلك هو الاوجب عليّ لما لزمني من حق سؤالكم . فرأيت ان اقتصر على ان اذكر لكم ما عندي في امر الشيخ وما ظهر لي من بداية السلوك على حسب[1] الايجاز والاختصار ليكون ذلك اقرب الى حصول الفايدة الناجزة لمن وفقه الله تعالى لها . فان استحسنتم منا هذا الغرض فبما ونعمت والا فليسعنا منكم التماس المعاذير واعتماد الصفح الجميل عما يقع منا من التقصير . والله تعالى ولي التوفيق لنا ولكم الى ما يحبه ويرضاه .

الذي اراه ان الشيخ في سلوك طريق التصوف على الجملة امر لازم لا يسع احدا[2] انكاره . وكأنّ هذا من الامور الضرورية في مجرى العادة. لكن الشيخ المرجوع اليه في السلوك ينقسم الى قسمين : شيخ تعليم وتربية وشيخ تعليم بلا تربية .

فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك وانما يحتاج اليه منهم من فيه بلادة ذهن واستعصا. نفس. واما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه وتقيده به من باب الاولى . واما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

اما[3] كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر لان حجب انفسهم كثيفة جدا ولا يستقل برفعها[4] واماطتها الا الشيخ المربي. وفيهم يتحقق اكثر ما ذكر مشترطوا الشيخ من اصحاب المناظرة والزموه خصومهم وهم بمنزلة من به علل مزمنة وادوا. معضلة من مرض الابدان فانهم لا محالة يحتاجون الى طبيب ماهر يعالج عللهم بالادوية القاهرة. واما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه . فيستقيم له من العمل بما يلقيه اليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره . وهو واصل باذن الله تعالى ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك اذا قصده من وجهه واتاه من بابه على ما سنذكره ان شاء الله تعالى . الا انه قد[5] لا يكمل كما يكمل من تقيد بالشيخ المربي لان النفس ابدا كثيفة الحجاب عظيمة الاشراك فلا بد من بقاء شي. من الرعونات فيها . ولا يزول ذلك عنها بالكلية الا بالانقياد

١) س : سبيل ؛ خ : حسب || ٢) ر : احد || ٣) س خ : فاما || ٤) س : بدفعها ؛ خ : برفعها || ٥) ر س : — قد ؛ س خ : قد ||

للغير والدخول تحت الحكم والقهر . ولهذا قلنا انه من باب الاولى. فان تقيد به لزمه من الاحكام التي تلتزم[1] مع الشيخ المربي ما لزم الاخر .

واعتماد شيخ التربية هو طريق الائمة المتاخرين من الصوفيـة واعتماد شيخ التعليم هو طريق الاوايل منهم . ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم كالحارث المحاسبي وابي طالب المكي وغيرهما من قبل انهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره ائمة المتاخرين مع انهم ذكروا اصول علوم القوم وفروعها وسوابقها ولواحقها لا سيما للشيخ ابو طالب. فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك .

وهذه هي الطريق السابقة التي انتحيا اكثر السالكين وهي اشبه بحال السلف الاقدمين اذ لم ينقل عنهم انهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربيين . وانما كان حالهم اقتباس العلوم واستصلاح الاحوال بطريق الصحبة والمواخاة بعضهم ببعض[2] . ويحصل لهم[3] بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون اثره في بواطنهم وظواهرهم ولذلك جالوا في البلاد وقصدوا الى لقاء الاولياء والعلماء والعباد .

واما كتب اهل التصوف فهي راجعة الى شيخ التعليم لان الاستفادة منها لا تصح الا باعتقاد الناظر فيها ان مؤلفها[4] من اهل العلم والمعرفة وممن يصح الاقتداء به . ولا يحصل له هذا الاعتقاد الا من قبل شيخ معتمد عليه عنده او من طريق يثق به . فان كان ما يستفيده منها بينا موافقا لظاهر الشرع موافقة بينة اكتفى بذلك والا فلا بد له من مراجعة شيخ يبينه له . فالشيخ اذا لا بد منه كما تقدم . والظاهر ان شيخ التربية في هذه الازمنة متعذر ووجوده اعز من الكبريت الاحمر بل وكذلك ايضا شيخ التعليم لان كثيرا ممن يشار اليه ويعتمد عليه من المنتسبين الى هذا الطريق لم يتصور معنى التصوف ولم يعثر له على حقيقة فضلا عما[5] وراء ذلك . ولا ادرى اى المصيبتين اعظم : فقد الشيخ المتحقق[6] او عدم التلميذ الصادق : فانا لله وانا اليه راجعون.

---

١) ف س : تلتزم ؛ ر : تلتزم ؛ س خ : تلتزم || ٢) ر س : لبعض || ٣) ر : - لهم || ٤) ر س : مؤلفيها || ٥) إ : عمن || ٦) ر : المحقق ||

فان قيل[1] : كيف[2] يصنع مع هذا من اراد سلوك طريق التصوف : هل يشتغل بطلب الشيخ او لا يشتغل بطلبه ويبقى منتظرا له وفي كل واحد من القسمين هل يشغل نفسه بعمل من اعمال اهل السلوك او لا .

فاقول : الاشتغال بطلب الشيخ لا وجه له سواء كان معه عمل او لم يكن لان الشيخ من منح الله تعالى وهداياه[3] للعبد المريد اذا صدقت همته في السلوك وبذل فيه جهده واستنفد جميع ما عنده قل او جل . ولاجل هذا يتيحه الله تعالى له على افضل حال سالما من البدع والضلال فيأمن بذلك المريد مما يقع فيه كل من اعتمد الشيخ بالطلب والتفتيش من الافات السابقة واللاحقة .

واما انتظار الشيخ من غير اشتغال بعمل فلا وجه له ايضا لان ذلك بطالة وتضييع وسوء ادب في المعاملة. فلم يبق الا القسم الرابع وهو الاشتغال بالعمل مع انتظار الشيخ . وسبيله الى ذلك ان يصح قصده براعاة[4] صدقه مع الله تعالى . فمن اراد ان يكون الله معه فليلزم الصدق فان الله مع الصادقين . وذلك بان يكلف نفسه ويحملها على العمل بمقتضى حال التصوف من البراءة من الدعوى والعكوف بالقلب[5] على باب المولى وحسن الظن وصدق الرجا والوقوف بين يدي الله تعالى على قدم الهيبة والحيا . فبالتزامه هذه الاشيا وحمل نفسه عليها يستنجز من الله تعالى الموعود ويصل الى المرغوب والمقصود .

وليعلم المسترشد ان حال التصوف اثرة من الله تعالى وتخصيص لبعض عباده وعناية بهم لا يفتح بابها ولا يرفع حجابها الا لمن صدق في افتقاره اليه[6] وتحقق في اعتماده عليه[7] . ولهذا كانوا منفردين بحالهم عن اشكالهم لا مطمع لغيرهم في الاحاطة بكنه امرهم كما قال المشايخ : الصوفية اهل بيت واحد لا يدخل فيه غيرهم. وذلك ان الله تعالى لما اراد ان يكون له اهلون من خلقه — ومعنى ذلك ان يكونوا به وله تحققا ووجودا — قذف في قلوبهم الايمان وكتبه فيها وايدهم بروح منه . وكل ذلك من غير تقدم وسيلة ولا سببية منهم . فلما منّ عليهم بذلك واشهدهم تلك المنة فتح لهم حينئذ باب اللجا والافتقار اليه ورأوا انفسهم بعين العجز وقلة الحيلة وغاية الضعف والفاقة . فلما فتح لهم هذا الباب

---

١) ف خ : فان قلت ‖ ٢) ف ر س : فكيف ‖ ٣) إ : وهداياه ‖ ٤) إ : لمراعاة ‖ ٥) إ : — بالقلب ‖ ٦) إ : — اليه ‖ ٧) إ : — عليه ‖

تلقاهم منه بانواع التحف والكرامات والالطاف والمنن تحقيقا لوعده في كفاية عباده المتقربين اليه واللائذين بجنابه[١]. فازدادت اذ ذاك انوار ايمانهم وتضاعفت والحق تعالى يصرفهم في احوالهم واعمالهم على حسب ما يليح لهم من الانوار وما يجلي لقلوبهم من الاسرار. فلم يزل هذا دابهم وملازمة باب الله تعالى ديدنهم الى ان وصلوا الى مقام الاحسان وهناك تراءى لهم محض التوحيد وتحققوا بخالص التفريد[٢] فامحت[٣] اذ ذاك رسوم بشريتهم وبطلت احكام انيتهم وعند وجود العيان فنيت[٤] الاعيان: «وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا»[٥]. وهذه هي الغاية التي هي مطمح نظر السالكين وبذلك يتحقق لهم اخلاص عبوديتهم لربهم ويتخلصون من رؤية اخلاصهم. ولا مطلب لهم سوى هذا. ويستوي في هذا مجذوبهم وسالكهم الا ان المجذوبين اوصلهم الى هذا المقام في اقرب زمان من غير معاناة ولا تعب والسالكون على عكس هذا. وجميعهم لم يخلهم الله تعالى من وجود كلاءته ورعايته في اطوارهم كلها من بداية ونهاية. فكانوا لذلك منفعلين لا فاعلين كما قيل: الصوفية اطفال في حجر الحق[٦].

فانتم ترون هذه الحال كيف اختصت بتولي الحق سبحانه لمن اختصه بها من غير ان يكله الى طلب او سعي يعتمده بنفسه. فالسالك لهذا الطريق ينبغي له ان يسلكه على هذا النحو. وليتخذ مثلا حاله في ما فهمه من حقية طريق التصوف وشرف قدر من اتصف به عبرة يتوصل بها الى منازلته والتحقق به. ولا شك انه يتحقق ضرورة فهمه لذلك وتعلقه له[٧]. ولولا ذلك لم يطلبه ولم يحرص على التوصل اليه اذ لا يتصور طلب شيء لا يتعقل. وفهمه له وتعلقه له

---

١) ف ق: بجنبه | ٢) ق ر: التجريد || ٣) ر س: فامحت || ٤) س: فنيت؛ خ: فنيت | ٥) قرآن: ١٧: ٨٣ || ٦) ف ط: وجدت هنا في الاصل المنتسخ منه ما نصه: «وجد للمؤلف رضي الله عنه سؤال وجواب في هذا المحل: «فان قيل هذا جبر محض والجبر باطل فاقول: التعبير بالجبر ها هنا ظلم في حق هذا المقام لان مفهوم الجبر لا يتصور الا في عالم الحجاب والفرق حيث يتصور وجود الجابر والمجبور عليه وما به يقع الجبر. والتعددات كلها اوهام وخيالات عند ارباب الكشف والشهود. والجبر في هذا العالم باطل قطعا لان لسان الشرع اثبت الاختيار والكسب للعبد وعليه يقع الثواب والعقاب. واما في حضرة الجمع وشهود الاحدية فلا يتصور وجود الجبر». انتهى. || ٧) س: وتعلقه به؛ خ: وتعقله له ||

ليس من تلقاء نفسه بل هو مجعول فيه بواسطة عقله المهيأ لذلك. فاذا نظر الى هذا علم ان لله تعالى عليه في هذا التصور والتعقل نعماً ثلاثاً[١] : وجدان العقل وتهيؤه لادراك هذا الشيء النفيس ونفس التصور والادراك. وجميع ذلك حاصل له من غير حول منه ولا قوة ولا ثبوت اهلية. وكم من شخص لم يرزق واحدة من هذه الثلاث[٢] فضلاً عن مجموعها. فاذا احاط علماً بما ذكرناه كان لله تعالى عليه نعمة رابعة وهي اكبر هذه النعم واجلها : معرفته بان لا مدخل[٣] له في شيء منها. فهذه اربع من النعم. فاذا كانت على ذكر من العبد وتيقظ لها وقصد الى نيل ما تصوره وحصوله له فاول ما يتبادر الى ذهنه رؤية عجزه وفقره وعدم قوته وحيلته وان الملي بذلك والقادر عليه مولاه عز وجل وانه لا يسعه في التوسل[٤] الى ذلك والظفر بما هنالك الا تذببه بين يديه وفراره من نفسه اليه واعتماده في ما هو بصدده عليه وعند ذلك يكفيه كل مؤنة ويهون عليه كل صعب وييسر عليه كل عسير ويكون له[٥] في هذا الشهود والنظر مجال للعبد[٦] بحيث يحمله على ان لا يتحرك لطلب[٧] ولا سبب بتخير منه. فان دام على التيقظ في هذا فقد وصل الى مقام ينتظم له كل مقام وحصل على مرام يستحقر في جنبه كل مرام. وان لم يحصل له هذا التبادر بل انزعج في الحال الى طلب سبب يحصل به غافلاً عن المنعم عليه بالنعم المذكورة ابتداء من غير استحقاق وغير ذاكر له كانت مصيبته بذلك اعظم من مصيبته بعدم نيل مطلبه وبوجود تعبه في الطلب وبضيق[٨] صدره في التعب[٩]. فيكون حينئذ رجوعه الى تصحيح ذلك اولى به. وهذه هي الانابة[١٠] التي هي مقدمة الهداية. وانما حرموا الوصول بتضييعهم الاصول. وهذه كلها اعمال قلبية ينبغي ان يقدمها المريد[١١] بين يدي سلوكه ويجعلها عمدته في امره كله. ثم بعد هذا عليه ان يفر عن مواضع الفتن والشرور ويعتزل مجالس العامة والجمهور ويقطع عن نفسه العلايق الظاهرة التي تدعوه الى ارتكاب الاثام والفجور.

وآكد ذلك كل سبب يقتضي وجود رياسة او تقدم كولاية حكم او

١) ا : ثلاثة || ٢) ا : الثلاثة || ٣) ا : مثل || ٤) ص : التوصل || ٥) ا : — له || ٦) ا : للعبد || ٧) ز : بطلب || ٨) ر ص : وبضيق || ٩) ر ص : بالتعب || ١٠) ص : وهذا في الانابة ؛ خ : وهذه هي الانابة || ١١) ا : الانسان ||

تدريس علم او غير ذلك . فان ذلك كله مضاد للسلوك وهو من القواطع العظيمة . وليجتنب النظر في العلوم والرسوم التي اكب الناس عليها بعد تحصيل ما يحتاج اليه منها في خاصته فان ذلك اعظم حجاب له عن مقصوده . ولذلك لا تكاد تجد احدا له عناية بالعلوم الظاهرة وتمرن فيها وشدة ممارسة لها حظي بشيء من حقائق علوم القوم الا من سلك به طريق الجذب . بل يعز فيهم الايمان بطريقتهم حتى توهم كثير منهم المباينة بين الظاهر والباطن ومخالفة الشريعة للحقيقة[1] وحملهم هذا التوهم على ان انكروا على الصوفية امورا خارجة عن اساليب علومهم ومقتضيات رسومهم وامتحن كثير من المشايخ على ايديهم ونسبوهم الى الكفر والزندقة وانواع الضلال والبدعة .

فمن مهمات السالك ان يفر من هولاء فراره من الاسد ولا يشتغل من علومهم الا بما يخصه في نفسه في عباداته[2] ومعاملاته وليدع[3] ما سوى ذلك.

ثم بعد هذا يعمد الى عمل واحد مثلا من اعمال اهل السلوك مما يتعين عليه القيام به وكان قد حصل له علمه من قبل ولو لم يكن الا توبة عن معصية او تورعا عن شبهة او جمع هم[4] من تفرقة او غير ذلك من اعمال ظاهرة او اعمال باطنة . ويبادر الى ايقاعه مخافة فوته ولا يرتقب لذلك وقتا ثانيا. ومعلوم انه لا يعوزه من ذلك الكثير فضلا عن العمل الواحد . ثم يشتغل فيما فضل من اوقاته عن ذلك بالبحث عن اخلاق السلف واحوالهم مع الله تعالى في اقامة عبوديته واخلاص مساعيهم له[5] .

وليواظب[6] على مطالعة كتب التصوف[7] ليطلع بذلك على مقاصدهم وحقايق علومهم وليحصل له تمرن بذلك وانس به ويزول عنه النفور الذي يصيب اكثر الناس عند مطالعة بعض كلامهم لا سيما لمن الف العلوم الظاهرة العقلية والنقلية كما ذكرناه . وذلك بعد ان يقدم الاستخارة على سنتها ويلجا الى الله تعالى في ان يفتح عليه باب الفهم فيها ويستعين على ذلك بمشاركة من[8] له عقل تام ومحبة صادقة في طريق القوم . فليشتغل المريد بما ذكرناه ولا يصدنه عن ذلك عدم

١) ق : والحقيقة ‖ ٢) إ : عبادته ‖ ٣) رس : ويدع ‖ ٤) س خ : همة ‖ ٥) ر : — له ‖ ٦) إ : وليواضب ‖ ٧) ف ق ر س : الصوفية ‖ ٨) س : ذلك : بمن ؛ خ : بمشاركة من ‖

وجدانه للشيخ الذي يراجعه في جزئيات سلوكه. وليتحقق ان ما يحصل له من نتايج هـذه البداية مزيد عظيم لا ينبغي ان يستحقره بل يغتبطه[1] ويشد يد الضنين عليه. وذلك من شكر هذه النعمة المقتضي لوجود المزيد منها.

فاذا قام العبد بهذا كله على ما ينبغي له مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومصححا تقواه له وعاملا بما امره به فقد حصل على اعظم الرجاء في ان يعلمه الله تعالى ما جهله مما يحتاج اليه في سلوكه تحقيقا لوعده في قوله عز وجل[2]: « واتقوا الله ويعلمكم الله »[3] وفي قوله عز وجل: « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا »[4] وفي قوله تعالى: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[5]. وفي قوله عز اسمه: « ومن يتق الله يجعل له مخرجا»[6]. وعند ذلك تترادف عليه انواع المزيد ويستمر في سلوكه على منهج[7] سديد ويبعث الله تعالى اليه من الهداة المرشدين من تسكن اليه نفسه ويطمئن به قلبه. وقد يقيض الله تعالى له في اثناء ذلك شيخا ربانيا يرقيه بهمته في اسرع وقت وقد يغنيه عنه[8] ولا يحوجه الى احد. وليس على المريد الا تصحيح نيته مع الله تعالى وتحسين ظنه به. فاذا هو قد وصل. بل لا مدخل له في هذا على التحقيق.

وبالجملة كل من قصد الى سلوك الطريق وجعل معتمد امره ما ذكرناه من الاعمال القلبية والبدنية فعلا وتركا فهو من المهتدين اليه لا محالة ان كان من اهل له ومن وفق هذه الامور فهو من المؤهلين له[9]. فان الامر المتفق عليه عند العارفين ان لا وصول الى الله الا بالله[10] ولا حجاب للعبد عن الله الا نفسه. والنفس لا تجاهد بالنفس وانما تجاهد النفس بالله. فاذا جوهدت النفس بالله لم يتصور في طريق السلوك قاطع ولا مانع لوجود حفظ الله وكلاءته وتأييده للمريد السالك بما شاء وكيف شاء. ابى الله ان يرزق عبده المومن الا من حيث لا يعلم. ولا تزال حجب نفسه الظلمانية والنورانية ترتفع وتزول شيئا فشيئا حتى ياتيه اليقين.

---

١) ف ق ر س: يغتبط به ‖ ٢) ف ق ر س: عن من قايل ‖ ٣) قرآن: ٢: ٢٨٢ ‖ ٤) قرآن: ٨: ٢٩ ‖ ٥) قرآن: ٢٩: ٦٩ ‖ ٦) قرآن: ٦٥: ٢ ‖ ٧) س خ: منهاج ‖ ٨) إ: — بهمته... عنه ‖ ٩) ر: — له ‖ ١٠) س: الا به ‖

فهذا هو مبدا طريق السالك الى منازلة حال التصوف ولا نهاية له الا التحقق[1] بما تخلق[2] به من المعاني التوحيدية : « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »[3]. بل ليس له غاية ينتهي اليها اذ له في كل حال سلوك ووصول وعليه في كل حين تحل ثم له بعده تحل وتجل على حسب ما يتزله من المنازل ويحل فيه من المواطن . وليس في طريق الله تعالى مفازة ولا متاهة كما توهمه اصحاب المناظرة بل يكون له في كل منزل يتزله دار وقرار ويتأتى له في كل حل[4] وترحل اعوان وانصار . وانما تكون المفازات والمتاهات في اقامة العبد على مالوفاته ومعتاداته حين يجد طعم نفسه ويعتمد على عقله وحسه ويتبين له مصداق هذا عند انكشاف الغطاء. ونعوذ بالله من سوء القضاء .

فاذا تحقق المريد هذه الجملة التي ذكرناها لم يتهيب سلوك هذا الطريق ولم يستوعره واستقام له السير فيه بقرة عين وانشراح صدر ولم يتعب نفسه ولا عقله بالنظر في ما ذكره[5] اصحاب المناظرة من امر غير واحد. فان ذلك مما يشوشه ويدهشه ويوجب له التقاعد والتكاسل عن الاخذ في هذا الطريق وينسد عنه باب السلوك بالكلية . ولو دفع الانسان الى تصحيح اكثر تلك المعاني وكون العبد مامورا براعاتها والقيام بمقتضى حقايقها بالادلة الشرعية على طريقة علماء الظاهر ربما لم يحصل له وفاء بذلك . كيف والامر بحمد الله[6] اقرب من هذا كله : لان الله تعالى بعث الينا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ولم يجعل علينا في الدين من حرج واي حرج اعظم من معاناة السلوك على حال ما الناس عليه من التفرق والاختلاف وعدم الهداة المرشدين وغاية ما طلب من العبد امر واحد وهو اخلاص العبودية لله عز وجل لا مانع للعبد من اقامتها في مقاماتها الا هواه المتبع[7] وهوى كل احد ظاهر له اذ هو حقيقة نشأته ومجبول خلقته وكيف يخفي على الانسان حاله اذا كان منصفا من نفسه ناصحا لربه عاملا في صلاح قلبه .

---

١) ق : التحقيق ‖ ٢) ص خ : تحقق ‖ ٣) قرآن : ٦٢ : ٤ ‖ ٤) ا : حال ‖ ٥) ا : ذكر ‖ ٦) ر : + تعالى ‖ ٧) ص خ : المتبر ‖

فاذا اشتد المريد مخالفة نفسه في كل ما تدعوه اليه مما لا يخاف ضرره في عقله وجسمه والتزم عدم التمسك بكل ما يظهر له فيما يرجع الى عقده[١] وفهمه[٢] اي افة تصيبه . بل له في ذلك اعظم الفوايد . وغاية ما يعرض[٣] له[٤] من الافات التي يتوهمها المريد في مخالفة نفسه ان تدعوه الى نوع من الطاعات ولا يظهر له وجود حظها فيه فيخالفها مع ذلك فتفوته تلك الطاعة . وكذلك في التزامه عدم التمسك بما يدركه عقله اذا ظهرت له حقيقة من الحقايق بزعمه فيتعامى عنها ويضرب عنها صفحا ولا ضرر عليه في جميع ذلك بل هو سالك انهج[٥] المسالك والعبد ابدا شأنه العجز والقصور ولو بلغ في العلم والعمل كل مبلغ ويكون للمريد في اعتماده هذه المخالفة التي ذكرناها شغل شاغل يمنعه من سلوك بنيات الطريق والانحراف عن جادة التحقيق والتعرض للاخطار والاستهداف لانواع المضار . فلقد ضل ضلالا بعيدا من سخت نفسه بالوصال دون الصيام او سمحت بالصيام على الدوام دون تركه في بعض الايام . ومن رضي باخراج جميع ما له دون امساك بعضه ومن طاب نفسا بالانحياز الى قنن الجبال والتقطع في المفازات دون اعتزاله في بيته مع وجود السلامة فيه . وهل هذا كله وما اشبهه الا من الشهوة الخفية التي تصحب معالجتها وتقتضي وجود الافات الدينية والدنياوية موافقتها . ولو وقف على حدود الشرع وسلك سبيل التقوى والورع لكان خيرا له ولا شهوة له في ذلك البتة ولذلك يشتد على النفس مراعات الاوساط وتشره الى احد الطرفين من تفريط او افراط . وبالتزام العبد للصدق[٦] في احواله كلها يحفظه الله تعالى ويؤيده ويحميه من المهالك ويسدده ويقيض له من المشايخ المحققين من تقر به عينه . فعلى العبد البداية ومن الله تعالى التمام والنهاية . ولله الامر من قبل ومن بعد .

فهذا ما ظهر لي في المسئلة التي اثرت الكلام فيها . واني لأعلم اني في ذلك متكلف وسيء الادب وآخذ في ما لا يعنيني[٧] ولكني استغفر الله تعالى واسأله التجاوز والعفو فهو اهل ذلك ووليه وهو حسبي في ذلك ونعم الوكيل.

---

١) س خ : عقد ‖ ٢) س خ : وجسه . كذا ‖ ٣) ف س : يفرض ؛ س خ : يعرض ‖ ٤) ف ق س : — له ‖ ٥) س خ : انجح ‖ ٦) س خ : الصدق ‖ ٧) ر : يعنيه ‖

ونسأله جل وعلا ان يرينا الحق ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويعيننا على اجتنابه . وصلى الله على سيدنا[1] محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً[2] .

١) ق ر س : + ومولانا || ٢) إ : [يقرأ هنا بخط مختلف ، ونظنه خط السلطان] ان الذي وجهت وجهي له هو الذي خلقت في اهلي : لا يخفى عليه حالهم ساعة وفضله اوسع من فضلي ؛ ف : + كثيرا اثيرا الى يوم الدين؛ ق : + انتهى والحمد لله . . . ونعم الوكيل . انتهت الرسايل الصغرى ، تتلوها الرسايل الكبرى ان شاء الله؛ ر : + انتهى كتاب الرسايل الصغرى للامام الاوحد الشيخ العارف بالله سيدي محمد . . . بن عباد . . . على يد . . . عبد الرحمان بن ابي القاسم بن ابي علي بن احمد الجابري ثم المصلي نسبا المالكي مذهبا . . . وكان الفراغ من نسخه ضحوة يوم الجمعة التاسع عشر من شهر شوال الذي من عام اثنين والف سنة [١٥٩٣ م] والحمد لله . . . ؛ س : انتهت الرسايل الصغرى بحمد الله . . . وكان الفراغ منها ضحوة السبت سابع ربيع الثاني عام خمسة وستين ومايتين والف [١٨٧٨م] على يد . . . محمد بن الطالب بن محمد ابن سودة . . . ||

[213.v.] كتاب[1] تضمّن التوصية والنصيحة لرجل اصابه ضيق في [219r.] صدره[2] بما[3] هو عليه من احوال غير مرضية عنده مع انه يريد الانتقال عنها الى احوال اخر مرضيـة عنده ومؤثرة له فلم يقدر على ذلك .

الحمد لله بقدر نعمته — اما بعد فقد وصلني كتابكم وانتم تصفون فيـه احوالكم ونِعماً[4] فعلتم — وحاصل ما ذكرتموه ان ما اتصفتم به من الصفات واستُعملتم فيه من الحالات هي مكروهة اليكم غير محبوبة لا ترضونهـا للتقرب[5] بها الى ربكم . وان ما توهمتموه او[6] تخيلتموه بعقولكم من احوال لستم عليها هي محبوبة اليكم غير مكروهة تتمنون ان لو كنتم عليها ووجدتم السبيل اليها .

وقد اتعبتم يا اخي انفسكم وأسأتم الادب في معاملاتكم[7] وكددتم[8] افكاركم فيما تذهب فيه اوقاتكم مجاناً بلا فايدة . بل ربما اضر ذلك بكم اذ[9] اشتغلتم بما هو حجاب عن مقاصد الاولياء العارفين وفيه التعبد[10] من رب العالمين . وانتم عندي معذورون في ذلك اذ سبقكم الى ذلك ناس كثيرون ممن تقدم وتأخر ولعلكم لا تجدون الا ذلك . وسبب وقوعهم في ذلك سبقية نظارهم الى ان لهم حولاً وقوة فـيما يتصرفون فيه من الحركات والسكنات وشدة غفلتهم عن الاول المدبّر والمُصرِّف المُقدِّر حتى أداهم ذلك الى اغاليط

١) س : وله ايضاً رضي الله عنه ونفع به كتاب . . .
٢) رب١ : صدر .
٣) ف : لما ؛ س ، مما .
٤) مرخ : ونعمّ ما .
٥) ف : للقرب .
٦) ف : و .
٧) ف ك رب١ : معاملتكم .
٨) مرط : بخط سيدي المهدي الفاسي « وكدّدتم » .
٩) رب٢ : اذا .
١٠) لعلّها « التبعّد » ؟ ؛ ف ق ك رب١ رب٢ : البعد .

وجهالات حادوا بها عن الصراط المستقيم وهم لا يشعرون .

ثم هم في ذلك فرق . اما من كان منهم[1] من اهل المعاملات الظاهرة من صلاة او صيام او حج او عمرة او ذكر او صدقة او غزو او تعلم علم او قضاء حاجة مسلم او غير ذلك من افعال البر القاصرة او المتعدية فمن أستُعْمِل منهم في شيء من ذلك ولم يجد له حلاوة ولم يعرف خيرته عند ربه حسبما ذكرتموه عن انفسكم فانه يقع له من الاحوال الردية ما وقع لكم . ومنهم من يرتضي حاله ولا يحب زواله ولكنه [v. 219] اذا فتر عنه او اعتراه كسل او ملل او حيل بينه وبينه بسبب من الاسباب تضيق[2] درعه[3] ويتشوش عليه وقته وتضطرب اموره ويرى انه قد طُرِد وأُبعِد . ومنهم من لا يكترث بذلك ولا يبالي به ويرى انه قادر على العودة اليه فيما يستقبل . ومنهم من يعيّن لذلك زماناً او مكاناً يفعله فيه كأن الامر في يده[4] فاذا جاء ذلك الوقت او حصل في ذلك المكان صادفه وقد اعتاد الغفلة والفتور فطالب[5] نفسه بانجاز ما وَعَدَت والوفاء بما شَرَطَتْ فلم تفِ بذلك ولم تنجز موعده بل سوّفته الى وقت آخر وهكذا يتمادى به الامر .

وكذلك من لم يكن أخذَ في شيء من العبادات والمعاملات ولكنه اذا قرع سمعه شيء من حكايات السلف وما كانوا عليه من الاحوال السنية والاعمال المرضية يسبق نظره الى ان له قوة على ذلك لو اخذ فيه ثم يقول : سآخذ فيه اذا تفرغت من شغل كذا واذا[6] كنت على حال كذا ويقطع عمره بالتسويف كما ذكرنا . ومنهم من يعتقد أنه مُخلِط لا يرى انه على شيء اما ان يكون[7] حقيقةً اعني ان يكون كذلك في نفس الامر او مجازاً وهو ان يكون ذلك في اعتقاده فقط فاذا سمع شيئاً من ذلك او رأى من اتصف به يقول : مثلي

١) رب٢ : – منهم .
٢) الأخر : يضيق .
٣) الاخر : ذرعه .
٤) رب١ : يديه .
٥) رب٢ : ويطالب .
٦) رب ١ ك : او اذا .
٧) ق رب ١ رب ٢ : – ان يكون

لا يُعطى ذلك ولا يطمع ان يدركه ولا يقدر عليه فتسخو نفسه بتركه ولا يحدّث نفسه بالاخذ فيه . وجميع هذه الجهالات رأيناها في انفسنا وشاهدناها في غيرنا وسبب ذلك غلبة ما ذكرناه على قلوبنا .

واما العارفون والمحققون من اهل المعاملات الباطنة فقد سلموا من هذه الجهالات وذلك انهم عملوا على تصحيح التوحيد أوّلَ مرة بان التزموه عقدا ثم ابتهلوا الى ربهم بألسنتهم وقلوبهم في تحقيقه لهم حالا وحرصوا على ان يستصحبوه في احوالهم جهدَ استطاعتهم . فلما علم ذلك منهم رحمهم بان جعلهم لا يرون لانفسهم حولا ولا قوة فيما يأتون او يدرون[١] بل[٢] تولى حفظهم وكلاءتهم وتكفل بمصالحهم وكفايتهم لانهم عبيده الصالحون لخدمته . وقد قال[٣] تعلى : « أَلَيسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَه »[٤]. وقال تعلى : « إنَّ وَليِّ اللهُ الذي نَزَّلَ الكتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالحِينَ »[٥] وقال تعلى فيما يروى عنه : انا عند ظن عبدي [220 r.] بي . فسهّلَ عليهم الصعب ويسّر عليهم العسير واربحهم وقتهم النفيس الخطير وأحلهم في نعيم وملك كبير فلا يتحركون ولا يسكنون الا به ولا يعتمدون الا عليه ولا يرفعون همتهم[٦] الا اليه[٧]. وهذه هي الخاصية التي سبقت بها هذه الامة سايرَ الامم . وفي بعض الاحاديث النبوية : ان الله تعلى اوحى الى عيسى عليه السلام اني باعث بعدك امةً ان اصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وان اصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم . فقال عيسى عليه السلام : يا رب وكيف ذلك ولا علم ولا حلم فقال اعطيهم من علمي وحلمي[٨] . وبهذه الخاصية ايضاً اتصفت هذه الملة[٩] المحمدية بالسماحة والسهولة

---

١) الاخر : يذرون .
٢) رب١ : بان .
٣) رب١ : + الله .
٤) قرآن : ٣٩ : ٣٧ .
٥) قرآن : ٧ : ١٩٥ .
٦) الاخر : همهم .
٧) الاخر : + لحسن ظنهم به .
٨) ف رب١ ك س رب٢ : حلمي وعلمي .
٩) رب٢ : الامة .

وهي وان كانت سهلة المتناول قريبة المرام فلا ينكر ايضاً مـا فيها من التكاليف الشاقة ، والتسهيل العام لا يكون الا بهذه المشاهدة التي ذكرناها . قال الله عز وجل : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ»[١] وملته انما هي الاسلام والتوحيد. وقال نبينا صلعم : «بُعِثْتُ بالحنيفية السمحة وهي ملة ابراهيم عليه السلام» . وقال بعض العارفين[٢] في معنى قوله صلعم : «يسروا ولا تعسروا» معناه دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فان من دلك على الدنيا فقد غشك ومن دلك على الاعمال فقد أتعبك ومن دلك على الله فقد نصحك . والمقصود من هذا ان تعلموا ان هذه الطايفة المذكورة يقلّ الغلط فيهم من هذا الوجه الذي ذكرناه لغيبتهم عن شهود انفسهم ورؤية حولهم وقوتهم ولولا ذلك لم يكن لهم حال ولا مقال[٣] . فاذا وقع ذلك منهم نادرا تُدُورِكوا بالحفظ والكلاءة فثبتوا في مقاماتهم ووقفوا على مراكزهم عناية من الله بهم . واما اهل الكذب والدعوى فـلا كلام معهم . وقد علمتم[٤] بهذا من اين وقع الغلط على هذه الطوايف وباذا سلم من سلم وما ذاك الا بهذه الحالة العظيمة التي اختص بها عباد الله وبها صاروا اولياء الله[٥] .

فاذا علمتم موقعها من الدين وانها الوسيلة الى القرب من رب العالمين وتشوقتم الى ان ترتقوا الى هذا المقام الكريم وتنتظموا في سلك من آتاه الله بهذا[٦] الملك العظيم [.v 220] فستعلمون مما قررناه انه لا سبيل لكم[٧] اليها الا عليها ولا وسيلة لكم اليها الا بها كما قال بعضهم : «عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي» . ويُحكى انه سُئل علي بن ابي طالب رضي الله عنه وقيل

---

١) قرآن : ٢٢ : ٧٧ ؛ ف ق رب١ ك : + وَفِي هَذَا ؛ رب٢ : + لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ .

٢) إس ط : هو سيدي ابو الحسن الشاذلي رضي الله عنه .

٣) ق رب١ ك رب٢ : مقام .

٤) ق رب١ ك رب٢ : فقد .

٥) ق رب١ ك : له .

٦) ق رب١ ك رب٢ : هذا .

٧) إس : اليكم .

له : أعرفت الله بمحمد ام عرفت محمدًا بالله فقال: لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكانَ محمد اوثق في نفسي من الله ولكن الله عرفني نفسه بنفسه . فالان اذ ظهر لكم اتحاد المتوسل به والمتوسل اليه على وجه لا تفهم كيفيته العقول ولم تروا في ذلك تباينًا ولا تغايرًا[1] فقد ظفرتم بحالة هي غاية الطالبين ونهاية رغبة الراغبين اذ لا يمكن التوسل الا بوجود حاضر قريب . فاذا كان المطلوب موجودًا عندكم وحاضرًا معكم وقريبًا منكم فماذا تطلبون من بعده وماذا[2] تتوسلون به سواه وما مَثَلكم في ذلك الا كمَثَل رجل بيده ذرة خطيرة لا يعرف لها قدرًا بل يحسبها في عداد الاحجار التي يعرفها بل لا شعور له بها وهو يشكو الضر والفقر[3] ويتكفف للناس[4]. فبينما هو كذلك اذ انكشف له حقيقة امرها وانه متمكن من ان ينال بها درجة الملك فلا تسئل عما هو فيه من الغبطة والسرور والنعمة والحبور . وقد قالوا : « ليس العجب من السيَّارة حيث طلبوا الماء فوجدوا يوسف[5] وانما العجب من مذنب طلب المغفرة فوجد الله » . قال الله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا ».[6]

وقد قرّبتُ لكم العبارة عن هذا الامر لعلكم تفهمونه والا فهو الطف من ان تضبطه عبارة او تحمله اشارة ولكل شيء سبب قدر الله[7] سببيته من غير حول من العبد ولا قوة . فقد تكون معرفتكم[8] واعتقادكم اني احسن الارشاد الى ما طلبتموه وكتبتم الي بما كتبتم به وجوابي لكم على ذلك اسبابًا في حصول مطلوبكم من غير حول منا ومنكم ولا قوة . وسترون بهذا النظر احوالكم كلها جارية هذا المجرى الى الله ان يرزق عبده المومن الا

١) ق ف رب ١ : تباين ولا تغاير ؛ ف ط كذا .
٢) الآخر : ولماذا .
٣) ق رب١ ك رب٢ : الفقر والضر .
٤) رب١ رب٢ : الناس .
٥) انظر قرآن : ١٢ : ١٩ .
٦) قرآن ٤ : ١١٠ .
٧) ق رب١ ك رب٢ : + تعالى .
٨) ف ق رب١ ك : + لي ؛ رب ٢ : + بي .

من حيث لا يعلم ففيمَ العناء. والتعب والكد والطلب وعلى مَ الفرح والتأسف والندامة والتلهف « دونَ اللهِ تُريدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ »[1] . اما علمتم[2] ان في الله عوضاً من كل فايت وخلفا من كل ذاهب[3] بل من وجد الله فما فقد شيئاً ومن فقده فما وجد شيئاً .

فهذه هي القاعدة التي بنى عليها امورهم العارفون المحققون [221. r.] فكل مـا يعتريكم من الوساوس والافكار وما يحجبكم من نيل المراد وقضاء الاوطار فانما ذلك لما غاب عنكم من هذا التحقيق . فاذا فتح الله عليكم في فهم ما ذكرناه واخذتم به انفسكم ان تكونوا عليه في مواردكم ومصادركم كانت عندكم عبادات[4] سرمدة وقربات مؤبدة لا تتخللها[5] فتور ولا ملل من غير تعب منكم ولا نصب . وهذه هي الغنيمة الباردة والتجارة الرابحة والمزيد الذي اوجبه الشكر الذي انعم به عليكم من رؤيتكم الاشياء بالله ومن الله فطوبى لكم اذ ذاك وحسن مآب .

فتلقوا يا اخي ما قلناه لكم بحسن القبول وقدموه على كل معقول ومنقول واعلموا ان العقل لا يدركه والنقل لا يصرح به بل هو من العلوم اللدنية التي أودعها الله في غيابات القلوب وقد رُوي ان في بعض الكتب المنزلة على بعض انبياء بني اسرائيل : « لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به ولا في الارض من يصعد به ولا في البحر من يعبر به . العلم مجعول في صدوركم موضوع في قلوبكم فتادبوا بين يديّ بآداب الروحانيين وتخلقوا باخلاق النبيين الربانيين اظهر العلم من قلوبكم على السنتكم حتى يعمكم ويغمركم » . فهذا ما اردنا ان نذكره لكم بين[6] يدي الكلام على احوالكم ليكون اصلاً ثابتاً يُرجع اليه واساساً يُبنى عليه .

---

١) قرآن ٣٧ : ٨٤–٨٥ .
٢) رب٢ : — علمتم .
٣) رب٢ : هالك .
٤) رب٢ : عبادة .
٥) الاخر : يتخللها .
٦) رب٢ : — بين . . . حسن .

اما ما ذكرتموه من[1] ترتيب احوالكم في ليلكم ونهاركم فذلك كله حسن ينبغي[2] لكم ان تشكروا الله تعلى على هدايتكم[3] اليه واستعمالكم فيه فان جميع ذلك قرب الى الله عز وجل قلّ من يظفر بها . وانما تدخل عليكم الوسوسة في ذلك والتشويش منه حتى لا تجدوا له حلاوة ولا رأيتم عليه طلاوة من قبل انكم فاقدون للشاهدة المذكورة[4] غافلون عنها . فلو اعرضتم عن نظركم الى انفسكم في ان تروا لها حولا او[5] قوة او تنيلوها حظاً وشاهدتم انفراد الله تعلى بتدبير امركم وحسنتم الظن به لرأيتم من نعم الله تعلى عليكم وضروب تخصيصاته[6] لكم ما يذهلكم عن تطلب امر وراء ذلك وان[7] تصغوا بهمكم اليه . ومبدأ ذلك اعني ما ظهر لنا من النعم ان اخرجكم من ظلمة العدم الى نور الوجود ثم غذّاكم بلطفه ورباكم بجنانه واطفه[8] الى ان عقلتم وفهمتم [221 .v] ثم حلاكم بحلية الاسلام والايمان وتعرف لكم بواضح[9] البرهان وجعلكم من حملة كتابه وواجهكم بكريم خطابه وجعلكم محلاً لظهور صفاته واسمايه واهلاً لقبول تكاليفه وتصديق انبيايه ثم استعملكم في التعلم والتعليم ورقاكم الى هذا المنصب العظيم الى غير ذلك من انواع النعم الظاهرة وما غاب عنا وعنكم . اكثر كلّ ذلك من غير وسيلة منكم ولا استحقاق بل بمحض كرمه وفضله وفي كل واحدة من هذه النعم نعم لا تحدى نفعاً ودفعاً . « وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحصُوها »[10] . فمن شاهد هذه النعم ورأى نفسه فيها طفيلياً استغرقه الفرح بها والشكر عليها ومنعه ذلك من التشوف الى ما لم يوته الله تعلى وما[11] يكون فيه هلاكه ولا يشعر بذلك

١) رب ٢ : في .
٢) رب ٢ : فينبغي .
٣) إس : هَدَاكم .
٤) رب٢ : — المذكورة .
٥) ف : و .
٦) رب ٢ : تخصيصه .
٧) ق : او .
٨) ق رب١ ك رب٢ : وعطفه .
٩) ق : بوضايح .
١٠) قرآن : ١٤ : ٣٧ .
١١) ق رب١ ك رب : + ربما .

ولا شيء احب الى الله تعلى من قيام العبد بحكم حاله التي هو عليها فبذلك تظهر عبوديته ويتحقق ادبه . قال عمر[1] بن عثمان المكي رضي الله[2] عنه : « التصوف ان يكون العبد في كل وقت بما هو اولى به في الوقت » ونعني بذلك ان يكون العبد حاضراً مع ربه عز وجل في ذلك قائماً بحقوق الشرع فيه وكيفية حضوره مع ربه هو ما ذكرناه من معاملات اهل التوحيد . وكيفية قيامه بحقوق الشرع ان يتبع ما رسمه علماء الظاهر في المسايل الفقهية فان قدر على العمل بما اتفقوا عليه من غير حرج ولا ضيق صدر فقد حاز اعلى مرتبة في التقوى والورع ونال درجة المتقين والورعين. والا اخذ بالخلاف بعد ان يتقن[3] علم ذلك على اربابه لان اختلاف العلماء رحمة في مثل هذا ولولا ذلك لهلك اكثر الناس . والامر في هذا قريب لمن نصح نفسه واقتصر من الدنيا على اليسير ولم يسترقه بطنه ولا[4] فرجه واذا يصعب الامر على المتوسع في الدنيا ومن تدخل عليه من وجوه كثيرة فمثل هذا لا يسلم من ارتكاب مساخط الله تعلى بجهله وغفلته. ومن تشعبت به همومه في اودية الدنيا لم يبال الله تعلى في اي اوديتها هلك .

ولا شك ان تعليمكم[5] الاولاد من افضل القرب الى الله تعـلى لكن اخذكم الاجرة على ذلك مما اختلف فيه العلماء. الا ان اكثرهم على جوازه فما اخذتموه ممن يُرضى كسبه او هو مجهول لا يُدرى حاله فهو حلال . فان اضفتم الى ذلك ان لا تستقصوا [r. 222] في طلب الاجرة منهم وتاخذون[6] ما عفى وكانت همتكم في مراعاة تعليمه تقرباً الى الله تعلى فقط كان ذلك حسناً منكم وقد مضى عليه ناس صالحون عملهم مثل عملكم وهو الذي اشار اليه ابن العريف فيما حكيتموه عنه . وعلامة صدقكم في ذلك ان لا تميل قلوبكم الى من يعطيكم اكثر من ميلها الى من لا يعطيكم او يعطيكم التافه اليسير ولا تحبون بقاءه عندكم اكثر من بقاء غيره .

١) الاخر : عمرو .
٢) رب ١ ك : + تعالى .
٣) رب٢ : يتيقن .
٤) ك : و .
٥) ف : تعليم .
٦) ك رب٢ : وتأخذوا .

فهذه هي العلامة القاطعة فيما ذكرناه . وتستعينون[١] على هذه الحالة ان[٢] تعلموا ان رزقكم لا بد ان يصلكم[٣] حتماً وان الحرص لا يزيد فيه وعدمه لا ينقص منه وان رزق الاخرة هو الذي ينبغي ان يُحرص عليه ويبذل المجهود في طلبه . « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى »[٤]. ثم انتم متمسكون من هذا فلِمَ تفرطون فيه. وما اخذتموه على[٥] هذا الوجه يبارك لكم فيه حتى يكون الدرهم الواحد يقوم مقام[٦] مائة الف درهم . فان تحققتم بما ذكرناه اولاً من المشاهدات التوحيدية كفاكم ذلك في حصول هذا الطالب[٧] وغيره . ويبقى عليكم النظر في وجه سياسة الاولاد وتأديبهم على اختلاف اطوارهم فان منهم الذكي والغبي والقريب والاجنبي والشريف والدني والفقير والغني الى غير ذلك من اختلاف احوالهم . وكل واحد منهم يقتضي منكم حقاً توفوه له ولا تبخسوه شيئاً . وانما تقدرون على ذلك بان تكون فيكم اربع خصال : ايمان راسخ وذهن ثاقب وعلم متين وخلق حسن . فباستكمال هذه الاربعة فيكم تقدرون على ان تنزلوا كل واحد في منزلته وتعاملوه بالمعاملة اللايقة به . فان لم تستوفوا ذلك فاسلكوا سبيل الاحتياط والمسامحة ما امكن فلان تخطئوا في العفو خير من من ان تخطئوا[٨] في العقوبة . وهذا كله فقه حالي لا سبيل الى ضبطه .

واما ما ذكرتموه من انكم اذا تلوتم القرآن لا تجدون رقة وربما طلبتم انفسكم بالبكاء فلا تبكون فانما سبب ذلك غفلتكم حين قراءتكم عمن[٩] هو كلامه وعلى من انزل وفيمَ انزل . وكيف يجيئكم البكاء واسبابه ضعيفة عندكم وقد وصف الله تعالى[١٠] الواجدين لذلك عند تلاوة القرآن بصفات جليلة

١) رب١ : وتستعينوا .
٢) الأخر : بان .
٣) ف رب١ ك : يصل اليكم .
٤) قرآن ٢٠ : ١٣١ .
٥) إس : – هذا . . . على .
٦) ف : – مقام .
٧) ق رب١ ك : المطلب .
٨) ف خ س : تصيبوا .
٩) ف : عن من .
١٠) رب١ رب٢ : – تعالى .

فقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا »[1] . فوصفهم [222. v.] اولا بايتاء العلم وبالمعرفة[2] بالله تعلى حيث نزهوه وعظموه بقولهم سبحان ربنا . وبغاية عبوديتهم له بخرورهم للاذقان سجدا وبيقينهم بالدار الاخرة والجزاء فيها بالثواب والعقاب[3] ثم وصفهم بالبكاء والخشوع وقال تعلى : « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ »[4] الى آخره الايات فيهم . فوصفهم بمعرفة الحق والايمان به واللجا الى الله تعلى والافتقار اليه والطمع في القرب منه والاحسان في معاملته . وقد فسّر رسول الله[5] صلعم « الاحسان » في الحديث الصحيح بقوله : « ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » . وهذا كله راجع الى المشاهدات[6] المذكورة فاجعلوها من بالكم وابنوا عليها صالحات اعمالكم تحمدون عاقبتها في حالكم ومآلكم كما ذكرناه لكم . وما يسّر عليكم من التلاوة بانشراح من صدوركم فذلك نعمة عظيمة كان في ذاك رقة او لم يكن .

واما ما ذكرتموه من انكم خايفون من الموت ان يأتيكم على ما انتم عليه من الاحوال فذلك شيء حسن وهو من نعم الله تعالى عليكم فاشكروا الله عليه وسلوه المزيد منه لانه من اقيم في مقام الخوف كان عاقبته الامن . يقول الله تعلى فيما يُروى عنه : « لا اجمع على عبدي خوفين ولا أمنَين : مَن خافني في الدنيا امّنته في الاخرة ومن امنني في الدنيا اخفته في الاخرة » . ولانه ايضاً من صفات العلماء بالله واهل رضوانه . قال الله تعلى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[7] . وقال تعلى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ

١) قرآن : ١٧ : ١٠٨-١٠٩ .
٢) رب ١ ك : والمعرفة .
٣) رب٢ : — والعقاب .
٤) قرآن : ٥: ٨٦ .
٥) ك : النبي صلعم .
٦) رب٢ : المشاهدة .
٧) قرآن ٣٥ : ٢٥ .

لِمَن خَشِيَ رَبَّهُ »[1] . واحسن من ذلك الخوف[2] ان تخافوا ان تلقوا ربكم وانتم تريدون غير ما اراده بكم مما فيه صلاحكم .

واما توهمكم ان ذلك يوديكم الى القنوط فذلك توهم باطل لان الرجاء يتبع منه والخوف والرجاء من مقامات العلماء العارفين[3] والامن من مكر الله والقنوط من رحمة الله من صفات الجاهلين الغافلين . وسبب غفلتهم وجهلهم رؤيتهم لانفسهم في اعمالهم الحسنة او السيئة ولو نظروا الى الواحد الاحد لاستوت الاحوال عندهم ولكانوا موصوفين بالخوف الذي يصحبه الرجاء وبالرجاء الذي يلازمه الخوف فاعلموا ذلك واعملوا به ولا تنظروا الى[4] اعمالكم فتقعون فيما وقعوا فيه والعياذ بالله .

واما [223.r.] ما ذكرتموه[5] من انكم اذا اخذتم في شيء من اعمال البر لا تدومون عليه بل تكسلون عنه وتتركونه لشغلكم بالسيد والاهل حسبما ظهر لي من كلامكم فانما ذلك لفقدانكم المشاهدات[6] المذكورة فلو كنتم متحققين بها ثم اعتراكم الفتور والكسل[7] عنها نادرًا بامر من الامور لكانت لكم معاملات اخر تقوم مقامها بل تزيد عليها من غير ان يدخل عليكم تلبيس او غرور ولو جرت الامور على وفق ارادتكم ربما لا تأمنون ذلك فيها . فثقوا بربكم وحسنوا به الظن فهو اعلم بالمصالح منكم . وقد روي عن ابراهيم بن ادهم رضي الله عنه[8] انه قال : « نمت ليلة عن وردي فاستيقظت فندمت فنمت بعد ذلك ثلاثة ايام عن الفرايض فلما استيقظت سمعت هاتفًا يقول :

كل شيء لك مغفور سوى الاعراض عنا   قد وهبنا[9] لك ما فات بقي ما فات منا

---

١) قرآن ٩٨ : ٨

٢) ك : – الخوف .

٣) ق : والعارفين .

٤) رب١ : – الى .

٥) ق رب١ رب٢ : ذكرتم .

٦) ق : المشاهدة .

٧) رب١ : الكسول .

٨) ق : – رضي الله عنه .

٩) رب٢ : غفرنا .

ثم قيل لي يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا لله[١] فاسترحت ». ومع هذا فما فتح عليكم[٢] من العبادات[٣] وان قلتْ فاشكروا الله عليها فانها لا تضيع عنده . وقد قال سيدي ابو العباس المرسي : « قليل العمل مع شهود المنة من الله تعالى خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس » .

واما ما ذكرتموه من الوسوسة التي كانت تعتريكم وبقي عليكم منها بقية فاعلموا ان ذلك من البلايا التي يبتلي الله بها بعض عباده ويختص بذلك اهل[٤] الدين منهم فلا يزال العدو يلقي الوساوس في قلب الواحد منهم حتى يوقعه اما في البدعة او الكفر او اختلال العقل . واقل ما يصيبه به ان ينغص عليه عيشه ويمنعه وجدان راحته وكل ذلك بقضاء وقدر فنعوذ بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء وشماتة الاعداء .

وسبب ذلك فقدانهم للمشاهدات[٥] المذكورة فلو تحققوا بذلك[٦] لم يجد الشيطان سبيلًا اليهم لانهم عباد الله حقًا . وقد قال تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »[٧]. وقال تعلى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ » .[٨] فان وسوس اليهم رجعوا الى ربهم فصرفه عنهم واستعاذوا به فاعاذهم . قال الله تعلى : « إِنَّ [٢٢٣ .v] الَّذِينَ إتَّقَوا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ » .[٩] وقال تعلى : « وإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ » .[١٠]

فان قلت : كيف يكون[١١] ذلك[١٢] من الشيطان وهو فيما يظهر دعاء الى

---

١) رب٢ : — لله .
٢) ف رب١ ك رب ٢ : + به .
٣) رب١ ك : العبادة .
٤) ف رب١ ك رب٢ : ذلك بأهل .
٥) رب٢ : المشاهدات .
٦) س : ذلك .
٧) قرآن : ٣٥ : ٦ .
٨) قرآن : ١٥ : ٤٢ .
٩) قرآن : ٧ : ٢٠٠ .
١٠) قرآن : ٤١ : ٣٦ .
١١) رب٢ : نكون .
١٢) رب٢ : — ذلك .

تصحيح الدين والحصول منه على اليقين وكيف يفرق بين الوسوسة المذمومة[١] والخاطر المحمود في ذلك وهما متشابهان فاعلم ان كون ذلك من الشيطان صحيح وانما ذلك لمخالفته للعلم ومضادته للتسهيل والتيسير والسماحة التي اتصف بها هذا الدين كما سبق فكان ذلك غلوا وبدعة وهـذا هو الفرق بينه وبين الخاطر المحمود لان الخاطر المحمود لا يدعوا الا الى موافقة العلم . والوسوسة ايضاً من شأنها الا تزول ولو احسن العبد في عمله ووافق السنة . والخاطر قد يزول اذا احسن . وهي علة لا دواء لها الا الالغاء عنها واتباع ظاهر العلم والرغبة الى الله تعلى في زوالها . وملاك هـذا كله التحقيق[٢] بالمشاهدات المذكورة اول الكتاب فذلك هو الإكسير الذي يقلب اعيان الاشياء وينتسخ الظلمة بالضياء والاماتة بالاحياء رزقنا الله منها[٣] ما رزق اولياءه بمنه وكرمه . وقد رُوي عن بعضهم انه قيل له[٤] : ان فلانًا يعتريه الوسواس فقال : عهدي بالصوفية يسخرون بالشيطان والآن الشيطان يسخر بهم » – وكان سيدي ابو العباس المرسي رضى الله عنه شديد الكراهة للوسواس[٥] في الصلاة والطهارة[٦] ويثقل عليه شهود من كان ذلك وصفه . وقيل له يوماً : « ان فلاناً[٧] صاحب علم وصلاح وهو كثير الوسواس فقال واين العلم والصلاح يا فلان العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الابيض[٨] والسواد في الاسود » .

واما ما ذكرتم من انكم في بعض الاوقات تطالعون بعض الكتب من غير تعيين كتاب او فن واحد فذلك حسن واحسن منه لو اشتغلتم بتقديم[٩] الاهم[١٠] فالاهم – والاهم انما هو ما تستفيدون به مزيد حضور ومراقبة ككتاب[١١] ابن عطاء وغيره .

واما ما ذكرتم من انكم تشتغلون بالتجويد في بعض الايام فذلك حسن

---

١) رب٢ – المذمومة .
٢) ف رب١ ك رب ٢ : التحقق .
٣) س : منه .
٤) رب٢ : وقد قيل لبعضهم .
٥) ف : للوسوسة .
٦) الاخر : الطهارة والصلاة .
٧) ف ق رب١ : – ان ! فلانً .
٨) رب٢ : – في الابيض .
٩) رب٢ : – بتقديم .
١٠) رب٢ : بالاهم .
١١) رب٢ : ككتب .

بشرط الا تعملوا بما اعتاده[1] الناس من غفلتهم عند ذلك ومراعاتهم لاصلاح السنتهم ومبالغتهم في [224.r.] اخراج الحروف من مخارجها مع الغفلة عن معاني ما يقرءون فتكونوا ضحكة للشيطان واحسن من ذلك لو التمستم رجلا له بصيرة في علم اليقين تجلسون اليه وتستفيدون منه وما اعز هذا في الوجود .

واما ما ذكرتم من ان اخي محمد بن اديبة رحمه الله ورضي عنه كان اشار عليكم بمطالعة الاحياء لابي حامد الغزالي فذلك رأي حسن لان الكلام فيه مبسوط مهذب قل ان يوجد في غيره الا اني لا أرى ان[2] تقرءوا منه الا ما يشتمل على عبادة او معاملة . واما ما يذكر فيه انه من علم المكاشفة او ما لا يتعلق به عمل فان قرأتموه فلا تشغلوا همكم[3] به اذ لا فايدة لكم فيه . واكثر هذا انما هو في ربع المنجيات واما الربعين[4] الاولين[5] فاكثر ما فيها فقه وهو فيه امام متفق عليه . واما الربع الثالث فاكثر ما فيه منقول من كتاب الرعاية مع زيادة تهذيب وتحرير وفيه زيادات كثيرة مفيدة . فهذا ما عندي فيه . واذا طالعتم كتاباً اي كتاب كان فلترفعوا همتكم في ذلك الى الله تعالى[6] في ان يفهمكم ما هو الحق من غير اعتماد على عقلكم . ولتقدموا بين يدي ذلك الاستخارة فان ذلك ادنى الى اصابة الحق والظفر به . وقد نبه على هذا السهروردي في كتاب عوارف المعارف اعني تقديم الاستخارة على مطالعة الكتب .

والذي اوصيكم به اولًا وآخرًا ان لا تغفلوا عما ذكرناه لكم تصريحًا او تلويحًا من المشاهدات التوحيدية والمنازلات اليقينية وقد كررناها عليكم[7] كذا كذا[8] مرة وبنينا مسايلكم عليها مسئلة مسئلة الا ما غفلنا عنه منها

---

١) ف خ : + بعض .
٢) س : اني ارى ان لا ؛ رب ١ : الا ارى ان .
٣) ق رب١ ك رب٢ : همتكم .
٤) رب٢ ك : الربعان الاولان .
٥) ف ق رب١ : الاولين .
٦) ق ك : – تعالى .
٧) رب٢ : لكم .
٨) رب١ : وكذا .

حين الكتب وان تعولوا عليه وتركنوا اليه وتلتمسوه من مظانه وعند اهله فهو بحمد الله لباب اللباب والعلق النفيس الذي يتنافس فيه اولوا الالباب . واقل ما تستفيدون[1] به في دنياكم الراحة من شرورها وكروبها والاستغناء بالنعيم المعجل فيها عن التقيد بعاداتها والتعبد لاربابها وفي الحديث المأثور عن رسول الله صلعم : « كفى باليقين غنى » . واذا كان ارباب الدنيا المتشاغلون بها اذا اعتراهم الهم والغم فيها ومنعهم ذلك مما هم بسبيله من التمتع والتنعم بها يحرصون على ازالة ذلك عنهم بما يمكنهم من الاسباب وبما يكسبهم الروح والفرح فيها [224.v] فتراهم عاكفين على شرب الخمر في المتنزهات والبساتين وعلى سماع النغم الموزونة من انفسهم ومن غيرهم وسماع اصوات الطيور وآلات الطرب وانواع الملاهي كما قال بعض الشعراء :

أصرفْ بصرفِ الراحِ عنكَ الأسى ورَوِّحِ القلبَ ولا تكتئبْ
وقل لمن لامك فيما بـه تدفعُ عنك الهم : قدكَ إنتَبْ

مع ان هـذه الاشياء لا اصل لها في الحصول على ما طلبوه بل ربما اعقبهم ذلك في دنياهم انواعاً من الكروب والغصص التي لا يرضى بها عاقل فضلاً عما يورثهم ذلك في اخراهم . فبأن يحرص طالب الاخرة على ما يزيل غمه وهمه[2] في الدنيا ليستقيم فيها على العبودية لربه عز وجل والتلذذ بمناجاته اولى واحرى . وليس ذلك الا بهذه المعارف التي ذكرناها . وفي بعض الاحاديث : « روحوا القلوب ساعة بساعة » . وقال بعض العارفين : « طيبوا حياتكم بالسكون الى مجاري الاقدار ولا تنغصوها بالاضطراب عند وقوعهـا فتتعبوا » — وقال بعضهم : « الرضى باب الله الاعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين » .

فهذا ما حضرني من هذا[3] الكلام على مسايلكم واظنه موافقاً لما طلبتم . والله تعلى ولي التوفيق لي ولكم الى ما يحبه ويرضاه والسلام عليكم وعـلى جميع اصحابنا ورحمة الله وبركاته .

---

١) ربـ٣ : يتنافسون .
٢) ق ربـ١ ك ربـ٣ : همه وغمه .
٣) الأخر : — هذا .